

١

**مظاهر التأثير الحضارى المتبادل بين  
بعض مدن البحر المتوسط فى بعض  
العادات والتقاليد الليبية القديمة**

بمّ مقلد من

الدكتور

**إبراهيم حسين محمد**

1

مما لا شك فيه أن طبيعة الموقع الجغرافي لأي دولة من دول العالم يكون له تأثيراً مباشراً في تحديد السمات الحضارية للدولة والتي تتكون كنتيجة طبيعية للتأثير المتبادل مع النول المجاورة لها والمتعاملة معها في مختلف المجالات. ولذلك سأحاول أن أوضح من خلال هذا البحث بعض مظاهر التأثير الحضارى المتبادل لبعض مدن البحر المتوسط على بعض العادات والتقاليد الليبية القديمة، وذلك من خلال الدراسة التاريخية والأثرية لنقاط البحث الآتية:

- مدى تأثر صناعة الأرواب الليبية وزخرفتها بحضارات المدن القريبة منها.
- الأصل التاريخي لعادة استخدام الوالى الذكري (الجراب) عند القبائل الليبية.
- أنواع أحزمة الوسط وطرق زخرفتها وربطها.
- أصل وأنواع حافظة القدم (الخف) التي تستخدمها القبائل الليبية.

وقد اعتمدت في دراسة كل نقطة من نقاط البحث السالفة الذكر على محاولة التعرف على الجزور الأولى لاستخدام تلك الأرواب الليبية وأنواعها وكذلك إبراز المميزات الخارجية التي ظهرت في أساليب زخرفة تلك الأرواب.

أما عن النقطة الثانية من البحث فتهدف إلى إبراز أقدم استخدام الوالى الذكري عند القبائل الليبية (الجراب) ثم التعرف على مراحل تطور صناعته وزخرفته عبر العصور التاريخية. بينما أوضحت في النقطة التالية بعض أنواع أحزمة الوسط التي تستخدمها القبائل الليبية وكذلك أساليب زخرفتها وطرق ربطها حول الوسط. ثم خصصت النقطة الأخيرة من البحث لتوضيح بعض أنواع حافظة القدم (الخف) التي تستخدمها القبائل الليبية وطرق صناعتها وزخرفتها. وعلى أي حال فإن جميع نقاط هذا البحث تؤكد وتوضح إلى أي حد كان للتبادل الحضارى بين بعض مدن البحر المتوسط تأثيراً واضحاً على بعض العادات والتقاليد الليبية وذلك على النحو التالى:

أولاً : مدى تأثير صناعة الأرواب اللببية وزخرفتها بحضارات بعض المدن المقريية منها:

ترجع أقدم مراحل استخدام الستر إلى عصور ما قبل التاريخ حيث عثر على مجموعة من التماثيل العاجية في موقع (هيراكونوبوليس) الكوم الأحمر بمدينة إدفو حيث تصور تلك التماثيل بعض النساء وهن يرتدين السترة التي تمتد من الوسط إلى نهاية القدم (Kilt) وثبتت حول الوسط بواسطة حزام، كما وجد نموذجاً آخر من العاج بصور امرأة وهي ترتدي عباءة تميزت بوجود طرف لتثبيتها حول الوسط بحيث يبدت قريبة الشبه من البالطو<sup>(١)</sup>. انظر شكل رقم (١١).

وعلى هذا الأساس فإن الجذور الأوفى لصناعة الستر والأرواب اللببية التي أظهرتها بعض التصاویر على بعض جدران المقابر والمعابد المصرية فهي بدون شك كانت من نتاج ذلك التأثير المتبادل بين كل من الحضارتين المصرية واللبيية. كما ساهم في تدعيمه الأمتداد الجغرافي الطبيعي بين البلدين وسهولة الاتصال بينهما سواء كان ذلك عن طريق البحر أو البحر.

أما عن السترة اللببية Kilt فكانت من أبسط نماذج الملابس التي ترتديها الغالبية العظمى من القبائل اللببية، وهي عبارة عن رداء يمتد من وسط الجسم إلى أسفل الركبة وقد ظهرت أقدم تصوييره لتلك الأنواع من الستر على بعض التماثيل العاجية. التي عثر عليها في (هيراكونوبوليس) الكوم الأحمر.<sup>(٢)</sup> . انظر شكل (١) ب.

كما وجدت تصوييره في معبد مدينة هابو ترجع إلى الأسرة العشرين تتضمن مجموعة من الأفراد اللبيين يرتدي أرواب جلدية، وتبدو أنها صنعت من جلود الأسود وهي تنتمي إلى تلك الأنواع البسيطة من الستر التي تمتد من الوسط إلى أسفل الركبة، ومن نماذج المفترزة لمباقة : على ذلك في صناعة الستر تمتد أظهرت تصوييره ترجع إلى عصر الملك تحوتمس الرابع<sup>٣</sup> وهو نوعاً جديداً من الستر حيث تم عمل فتحة بها من الأمام ثم ثبت عليها عند منتصف الوسط الوالى النكري وبالأضافة إلى ذلك فقد أظهرت أيضا بعض تصاویر الدولة

Quibell, B.A.; Hierakonopolis, I. London, 1900, PL. IX, P.6.

Quibell, B.A.; Ibid, PL. VII.

الحديثة نموذجاً لروب طويل كانت ترتديه الغالبية العظمى بين الليبيين في أول الأمر ثم أصبح يستخدم بشكل أكثر إنتشاراً من الطراز القديم الذي عرف باسم سترة الوسط<sup>(١)</sup>. أنظر شكل رقم (٢).

وعلى أي حال فإن معظم الوثائق الأثرية تشير بوضوح إلى أن ذلك الطراز من الأرواب الطويلة كان ارتدائه يعتبر علامة معيزة تدل على العظمة والمستوى الاجتماعي الرابع لكل من يرتديه، كما أن ذلك الطراز كان يشبه تلك الأنواع من الأرواب الطويلة التي توضع على الكتفين وتثبت بمشابك مذهبية. ومن المحتمل أن تكون تلك الأرواب كانت بمثابة هدايا تقدم من الحكومة البيزنطية إلى أمراء ومشايخ القبائل الليبية عند قدومهم لدفع الجزية السنوية إلى الحكومة البيزنطية.

وعن مواصفات ذلك الروب الليبي فقد أوضح (سترابو) بأنه رداء لفضفاض وله أطراف عريضة<sup>(٢)</sup>.

وقد أظهرت بعض النقوش المصرية أن الأرواب الليبية كانت عبارة عن سترة بدون أكمام وتصنع من الجلد<sup>(٣)</sup>.

أما عن نماذج الأرواب المصنوعة من النسيج فقد ظهرت كتقطة طويلة ويميل شكلها العام إلى الشكل المستطيل، ولكن أهم ما تميزت به تلك الأرواب أن الجزء العلوى منها أعرض من الجزء السفلى ويتم تثبيته بإلتصاقه حول الأكتاف، وفي معظم الأحيان كانت تعقد الحمالة التي توجد عند الطرف العلوى من الرب بحيث تبدو في شكل متقاطع على الصدر وأن تلك النماذج كانت تشبه تلك الأنواع من الأرواب المصنوعة من الجلد<sup>(٤)</sup>.

بالإضافة إلى ذلك فقد أظهرت تصويره على جدار مقبرة "الملك سيتي الأول" نماذج أخرى من الأرواب الليبية تميزت بوجود أكمام ويبدو أنها ثبتت فوق أحد الكتفين بواسطة مشبك، كما يبدو الشكل العام لتلك الأرواب أنها كانت تصنع بطريقة منتظمة من أعلى إلى

Bates. O.; The Eastern Lybian, London, 1914, p.119, (Frontispiece); Fig. 31. "

Strabo, XVII, P.828. "

Bates, O., Op Cit. (Frontispiece). "

Bates, O. Ibid, P 119, Fig 10, PL IV. "

أسفل ولذلك فإن حزام السترة كان يثبت من الداخل، وتميزت تلك النماذج من الأرواب عن غيرها بأنها كانت تزين ببعض التصميمات الملونة وذلك عن طريق وضع قطع من القماش فوق الثوب وذلك عن طريق الحياكة وكانت تتركز تلك القطع من القماش عند أطراف الثوب<sup>(١)</sup>. انظر شكل (٣).

ومن الأساليب الأخرى التي استخدمت في زخرفة الأرواب الليبية فقد تمكنت في وضع قطع من القماش عند وسط الثوب. كما ظهرت بعض الأشكال المتقاطعة فوق بعض الأرواب<sup>(٢)</sup>.

ويلاحظ أن الصدرى (tunic) كان من أكثر الأنواع شعبية وإنتشارا عند القبائل الليبية، ولعل ما يوضح ذلك هي تلك التصويرة لاثنان من القادة الليبيين وتوجد في متحف constantinop Le حيث توضح هذه اللوحة نموذجا آخر (الصدرى) مزود بأكام، وكذلك زود بحزام ثبت عند الوسط<sup>(٣)</sup>. انظر شكل (٤).

أما عن المواد الخام التي كانت تصنع منها تلك الأرواب فقد ظهرت منها بعض الأنواع عالية الجودة خاصة في الجهة الشمالية الشرقية من ليبيا ولعل ذلك يرجع إلى وجود نوعا من التبادل التجارى بين المدن المحيطة بالجهة الشرقية من ليبيا منذ منتصف القرن السادس عشر ق.م<sup>(٤)</sup>.

ومن المحتمل أن تكون الطريقة التي استخدمت في صناعة المنسوجات الليبية قد تأثرت بصناعة المنسوجات المصرية القديمة ولعل ما يرجح ذلك هو أن مواد صناعة المنسوجات الليبية كانت تجلب من المدن القريبة من ليبيا وخاصة من الجهة الشرقية منها، وإن ما يدحض ذلك إحصائيا هي تلك الأدلة الأثرية من قطع المنسوجات الكتانية التي عثر عليها في موقع الجدارى في مصر وترجع إلى عصور ما قبل الأسرات<sup>(٥)</sup>.

Bates, O; *Ibid*, PL.III. "

Champollion, F.d.; *Monuments de l'Egypte*, Vol 1, PL 17 "

Bates. O.; *Op.Cit.*, P 120, Fig. 13 "

MacIver, & Wilkin, *Libyan Notes*, P 69 n "

Brunton, C & Caton, thompson. *The Badarian Civilization*, London, 1928, P 62 "

## أصل أساليب زخرفة المنسوجات الليبية:

وحول تحديد المصدر الذي تأثرت به طرق زخرفة المنسوجات الليبية فقد وجدت بعض الآراء التي حاولت إرجاع تلك الطرق من الزخرفة بأنها إحدى المؤثرات الخارجية وأن مصدرها جزيرة (سردينا - Sherden). ويستند أصحاب هذا الرأي في تفسيراتهم لذلك إلى أن القادة الليبيين كانوا يحصلون على أسلحتهم المعدنية من سردينا<sup>(١)</sup>.

ويوضحون ذلك التأثير الحضاري المتبادل بين كل من سردينا وليبيا من خلال عقد مقارنة بين أصل الخطوط التي استخدمت في زخارف المنسوجات الليبية وبين أشكال الخطوط التي زينت الجدار الخارجي لكسره من الفخار (شقاقة) عثر عليها في سردينا. وعند فحص كل من الأثريين نجد أن خطوط الزخرفة الموجودة على الشقاقة الفخارية فهي تمثل مجموعة من الخطوط المائلة في الصف العلوي تقابلها مجموعة مماثلة في الصف السفلي بحيث يبدو الشكل العام لكل من المجموعتين معاً (العلوي والسفلي) أنهما يشكلان معاً مجموعة من السهام بحيث يفصل بين كل مجموعتين (صف علوي وصف سفلي) مجموعة من الدوائر السوداء والتي يرجع أنها ترمز إلى قطع معدنية. أنظر شكل رقم (١٤)<sup>(٢)</sup>.

وبمقارنة تلك الخطوط التي زينت جدار الشقاقة التي عثر عليها في سردينا نجد أنها تتشابه إلى حد كبير مع أشكال تلك الخطوط التي استخدمت في زخرفة المنسوجات الليبية، حيث نجد أن تصميم الخطوط الزخرفية الليبية تكونت أساساً من ثلاث خطوط أفقية عليها مجموعتان من الخطوط المائلة بحيث يظهر الشكل العام لكل خط من الخطوط الأتقية إنها تمثل مجموعة من السهام، ومن أوجه التشابه الكبير أيضاً بين أساليب الزخرفة الليبية والمردينية هو وجود تلك العلامات من الدوائر التي يرجع إليها ترمز إلى المعادن قد رسمت في صف أفقي أيضاً ويفصل بين كل خط أفقي والذي يليه. ولعل تلك المقارنة التي عقدت بين أساليب الزخرفة الليبية والمردينية كان الهدف منها إبراز التأثير الحضاري المتبادل بين بعض مدن البحر المتوسط وبين تلك الجماعات التي تعيش على السواحل الليبية الشرقية<sup>(٣)</sup>.

Muller, M.W; Egyptological Researches, Vol. II P. 126.

Bates, O., Op.Cit, Fig 16.

Bates, O. Ibid P, 121

وعلى أى حال فمن المحتمل أيضا أن تكون أساليب زخرفة المنسوجات الليبية أنها ترجع فى أصولها إلى الحضارة المصرية القديمة وذلك بحكم الأمتداد الجغرافى الطبيعى بين مصر وليبيا، ولعل من الأدلة الأثرية التى تدعم ذلك هى تلك القطعة العاجية التى عثر عليها فى موقع (نقادة Nagada) حيث نلاحظ أن الخطوط التى زينت أحد وجهى تلك القطعة تشبه إلى حد كبير تلك الخطوط التى وجدت على الجدار الخارجى للثقافة التى عثر عليها فى سردينا وكذلك الخطوط التى وجدت على أحد الأرواب النسيجية الليبية، كما نلاحظ أيضا فى تلك القطعة العاجية التى عثر عليها فى موقع نقادة أن الدوائر السوداء التى تفصل بين كل مجموعتين من الخطوط المائلة فى الثقافة التى عثر عليها فى سردينا قد وجدت أيضا مرسومة على القطعة العاجية فى منتصف مجموعتى الخطوط المائلة. أما عن الرسوم التى زينت الوجه الأخر لتلك القطعة العاجية فكانت عبارة عن مجموعة من الدوائر السوداء شغلت معظم مساحة سطح القطعة وهى تشبه إلى حد كبير الدوائر السوداء التى رسمت على ثقافة سردينا وفسرت بأنها ترمز إلى المعادن. وبناء على ذلك فإذا كانت بعض الآراء حاولت إرجاع الأصول الزخرفية فى المنسوجات الليبية إلى جزيرة سردينا فمن المحتمل أيضا إرجاع تلك الأصول إلى الحضارة المصرية القديمة وإن ما عثر عليه فى نقادة لخبر دليل على ذلك. انظر شكل رقم (٤ ب) (١).

وبالإضافة إلى ذلك فنذكر (سترابو Strabo):

لأن معظم جماعات شمال أفريقيا كانوا يرتدون عباءات مصنوعة من جلود الأسود كما استخدمت تلك الجلود فى عمل ماوى لهم، عرفت تلك الأنواع من الملابس الجلدية باسم الصديري (٢).

بينما يذكر (مولا Mela):

أن بعض سكان ليبيا وخاصة فى المناطق الداخلية كانوا يرتدون ملابس صنعت من جلود بعض الحيوانات البرية أو من البيلة المحلية، كما يذكر أن جماعة الـ (Macae) كانوا

Petrie, F. & quibell, D. A., Nagada and Ballas, London, 1896. PL. LXII-No. 24.

Strabo, XVII, p. 828.

يرتدون بعض الأنواع من الصدرى المصنوع من الجلد والتي ارتدتها أيضا جماعة الـ  
(Marmarid)<sup>(1)</sup>.

ووجدت بعض الأنواع الأخرى من الثياب تشبه الجاكت كانت ترتديها جماعة الـ  
(Inushagh) وهو عبارة عن قميص من الجلد، وان ذلك النوع من الثياب لم يكن شائعا عند  
عالية القبائل الليبية<sup>(2)</sup>.

وان ذلك الواقى الذكري (sheath) الذى يستخدم عند الجماع عرف عند الأثريين  
باسم (penistasche) وقد ذكر ذلك أكثر من مرة، فضلا عن ذلك فإن نماذج من تلك  
الوسائل الوقائية قد استخدمت فى (Minoan crete)<sup>(3)</sup> كما تستخدمها بعض القبائل حتى  
اليوم فى جنوب افريقيا<sup>(4)</sup>.

ثانيا: الأصل التاريخى لاستخدام الواقى الذكري (penistasche) عند القبائل الليبية:  
لقد كان من نتائج التأثير الحضارى المتبادل بين بعض مدن البحر المتوسط وبين تلك  
الجماعات الليبية القديمة وخاصة التي تعيش بالقرب من السوحل الليبية الشرقية أن ظهرت  
عادة استخدام الواقى الذكري عند تلك القبائل. والتي أرجعت أصولها التاريخية إلى الحضارة  
المصرية القديمة ولعل ما يدعم ذلك هو تلك المجموعة من التماثيل العاجية التي عثر عليها  
فى (هيراكليونوليس) الكوم الأحمر - حيث مثلت تلك المجموعة من التماثيل العاجية بعض  
الاشخاص وهم يعلقون ذلك الواقى الذكري (الجراب) عن طريق حزام مثبت حول الوسط<sup>(5)</sup>.

ويبدو بشكل واضح أن تلك النماذج من الواقى الذكري والتي ترجع إلى عصور ما  
قبل الأسرات فى مصر تشبه إلى حد كبير تلك النماذج التي وجدت فى بعض تصاوير الأسرة

Bates, O.; Op.Cit., P. 121.

Lyon, F.G.; travel in Northern Africa, p. 110

Burrows, M.R.; The Discoveries in Crete, PL. I.

Muller, M.W.; Op.Cit., Vol. II, P 121

Quibell, B.A., Hierakonopolis, London, 1900, PL. VII-VIII

الخامسة والتي أظهرت بعض الأفراد الليبيين وهم بضمون تلك الأجرية الذكرية بواسطة حزام يلتف حول الوسط<sup>(١)</sup>. أنظر شكل رقم ( ٥ )

ويؤكد العالم (جيمس هنري وسند) أن اسم الواقي للذكرى ورد ضمن بعض نصوص الدولة الحديثة باسم

K , r , - N - ty

وإن هذه الكلمة تعلى بالتحديد:-

(٢) Phallus with a Fore skin, fore skin.

Sa-hu-r<sup>c</sup>

وتعد تصاريح مقبرتي ساحو رع

Ne-user-r<sup>c</sup>

و نى أوسر رع

من الأسرة الخامسة من أقدم الأتلة الأثرية التي تظهر بداية استخدام الواقي الذكرى عند الجماعات الليبية<sup>(٣)</sup>. شكل ( ٦ ) -

ويلاحظ هنا أن الواقي الذكرى الذى وجد نى تصويرة مقبرة الملك كسى أوسر رع يشبه إلى حد كبير تلك الأنواع التي عثر عليها فى موقع "هيراكولوبوليس" وهى عبارة عن مجموعة من التماثيل للعاجية توضع بعض الأفراد وهم بضمون ذلك الواقي الذكرى لى أشكال مختلفة ويبدو أنه مثبت بواسطة حزام يلتف حول الوسط<sup>(٤)</sup>.

أما عن طريقة تثبيت الواقي الذكرى فقد أوضحت تصويرة مقبرة (نسى أوسر رع) حيث لرى أن الواقي الذكرى كان يمر أسفل الحزام المثبت حول الوسط ثم يتكلى إلى السفلى

Bates, O., Op.Cit., Fig. 17, 19.

BAR., III, sec 587 note.h,

BAR., IV, sec 52

Bates, O., Op Cit, P 122, Figs. 17, 18

Quibell, B A. Op Cit, PL VIII

"

"

"

"

ويدون أن يثبت على الحزام.

ومن المحتمل أن تلك الطريقة التي استخدمت في تثبيت الواقي الذكرى ظلت شائعة الاستخدام حتى عصر الدولة الحديثة، ولكن على الرغم من ذلك فقد ظهر نوعا جديدا من الواقي الذكرى في تلك الفترة حيث أظهرت تصويرة ترجع إلى عصر الدولة الحديثة إحدى جامعات المشوش وهي تضع نموذجا جديدا من الواقي الذكرى تميز طرفه السفلي بوجود شكل أشبه بالكرة (دلايه)، كما يبدو أن الواقي الذكرى أصبح جزء من حزام التثبيت، بينما أظهرت بعض التصاوير الأخرى أن حلقة تثبيت الواقي الذكرى كانت من أبرز سمات طريق تثبيت تلك الأحزمة<sup>(١)</sup>. شكل (٧).

وفضلا عن ذلك فقد وجدت مجموعة من التماثيل الليبية المصرية في معهد الكرك و ترجع إلى عصر الأسرة التاسعة عشر تظهر شكلا جديدا من اشكال الواقي الذكرى حيث يظهر شكله العام مربع الشكل ومثبت فوق الحزام بواسطة عقدة مربعة الشكل ولأن ذلك التمثال محفوظ بالمتحف المصري بالقاهرة. شكل (٨) -

ويمكن أرجاع الأصول الأولى لذلك الطراز أيضا إلى الحضارة المصرية القديمة ولعل ما يرجع ذلك هو تمثال من العاج عثر عليه في (هيراكولوبوليس) صور عليه نمونجا قريب الشبه جدا من ذلك الطراز الذي وجد على التماثيل الليبية المقدسة<sup>(٢)</sup>.

ومن المحتمل أن يكون استخدام ذلك الطراز من الواقي للذكرى كان شائع الاستخدام بين القادة وزعماء القبائل الليبية، كما أن تلك الأنواع ذات النهايات المزخرفة لم تظهر في التصاوير المصرية القديمة حتى وقت وصول المشوش في عصر الدولة الحديثة.

كما يرجح أن وضع الواقي الذكرى كان علامة تشير إلى بلوغ الشخص ويستند في ذلك إلى وجود بعض الصبية عراه (بدون الواقي الذكرى) وذلك ضمن نقوش معبد سا حورع الأسرة الخامسة<sup>(٣)</sup>.

Bates, O; Op.Cit., Fig. . 2. 1

Bates, O , Op.Cit., P 125.

Bates, O . Ibid, P 125, PL, VII

١١

١٢

١٣

أما عن المواد الخام التي صنع منها الوالى الذكري فلم تعرف بالتحديد لأن استخدام الجلود عثر على ما يؤكد استخدامه منذ أقدم العصور في مصر. بينما استخدمت النباتات العشبية والأخشاب في بعض مناطق جنوب أفريقيا، ولكن تظهر بعض نماذج من الوالى للذكورى الذى استخدمته بعض الجماعات الليبية انه كان يصنع من بعض المواد المرنة، كما يلاحظ أن بعض تلك النماذج كانت تزين بخطوط طولية بالران حمراء وزرقاء وببضاء<sup>(١)</sup>.

### ثالثا: أنواع أحزمة الوسط وطرق زخرفتها وربطها:

لقد أظهرت بعض نقوش المقابر المصرية التى ترجع إلى عصر الدولة القديمة نماذج من تلك الأحزمة الليبية وهى تشبه إلى حد كبير الأنواع التى تعرف فى العصر الحديث باسم Polo Belts، بحيث يبدو الشكل العام لهذه الأحزمة أن الجزء الملامس للظهر، أعرض من الجزء الملاصق للطن، وعن طريقة تثبيت الحزام لتوضح بعض تصاوير مقبرة ساحو رع أن الحزام كان يلتف حول الوسط وأن أحد طرفيه كان يدفع إلى أسفل بين الجسم والحزام ثم يتجه مرة أخرى إلى أعلى ثم يثبت بعمل عقدة لضبطه حول الوسط<sup>(٢)</sup>.

ومن المرجح أن كل من الحزام والحلقة كانا يصلعان من قطعة واحدة وفى هذه الحالة لابد من ضبط الوالى الذكري أولاً، أما عن تحديد طول الحزام فكان يوضع فى الاعتبار أنه سوف يمر أسفله بعد التفافه حول الوسط ويعد ذلك توضع الحلقة التى سبق الإشارة إليها.

وبالنسبة للمواد الخام التى صنعت منها الأحزمة فمن المحتمل أنها صنعت من الجلود المصنوعة وأن تلك الأنواع من الأحزمة المزخرفة التى ظهرت ضمن تصاوير مقبرة (ساحو رع) يلاحظ أن الحلقة قد زخرفت أيضا وثبتت فوق الحزام (appendage) حلقة الربط (توكة الحزام)، كما يبدو أن تلك الحلقة صنعت من قطع طولية من الجلد قليلة العرض تصف جنباً إلى جنب. كما يلاحظ أن حافتي الحزام العليا والسفلى أنهما صنعا من قطع أكثر عرضاً من تلك القطع الطولية التى تشكل جسم الحزام، كما يرجح أن تكون تلك الحافتيين قد صنعتا من العاج أو من مواد أخرى مع ملاحظة أن جميع الأنواع كانت تثبت من الأمام

Naville, E., *Figurines égyptiennes de l'époque archaïque*, II, Ri, XXII, P.68. <sup>(١)</sup>

Bates O., *Op.Cit*, P 126 <sup>(٢)</sup>

بواسطة بعض الأنواع من الدبابيس<sup>(١)</sup>.

وعلى أى حال فإن المسألة بين الخطوط العرضية فى الأحزمة كانت تغطى ببعض أنواع من مشور للمحار البحرى والتى ظهرت فى شكل قطاعات من (shell) وهى عبارة عن أنواع من الأصناف البحرية، ولن تلك المواد التى استخدمت كأحد اساليب الزينة أو زخرفة الأحزمة قد عثر على نماذج لها فى بعض مقابر النوبة<sup>(٢)</sup>.

رابعاً: أصل أنواع حافظة القدم (الخُف) التى استخدمتها القبائل الليبية:

لن معظم التصاوير التى وجدت على جدران بعض المقابر والمعابد المصرية القديمة واشتملت على صور لزعماء أو رؤساء القبائل الليبية فقد أظهرتهم فى أغلب الأحيان والكمامهم عارية، ولكن على الرغم من ذلك فقد وجدت تصويرة لهم فى مدونة هابو توضح أحد الزعماء الليبيين وهو يرتدى (خُف). لنظر شكل رقم (٩). وبالإضافة إلى ذلك فقد وجدت تصويرة توضح الملك (Mersey) حيث وضع صنبله فى حمالة ثبتت خلف ظهره وذلك أثناء خروجه من سفن للقتال<sup>(٣)</sup>.

ومن المحتمل أن تلك الأحزمة والسلاسل كانت تهدى من الحكومة البيزنطية إلى أمراء وشيوخ القبائل الليبية أثناء توجههم لنفع الجزيرة السنوية لهم<sup>(٤)</sup>.

وعلى أى حال فإن ذلك النموذج البسيط من (الخُف) الذى استخدم كغطاء للقدم كان منتشرأ بدرجة كبيرة بالإضافة إلى استخدام الصندل فى ذلك الوقت. وبالإضافة إلى ذلك فإن بعض التصاوير الأخرى التى وجدت على بعض جدران المقابر المصرية أظهرت أحد الليبيين وهو يرتدى ذلك النوع من أغطية القدم والمعروف باسم (Leg-wrapping) وهى تشبه إلى حد كبير تلك الأنواع التى يستخدمها أهل جزيرة سردينيا حتى اليوم وكانت تصنع من الجلد أو الصوف<sup>(٥)</sup>.

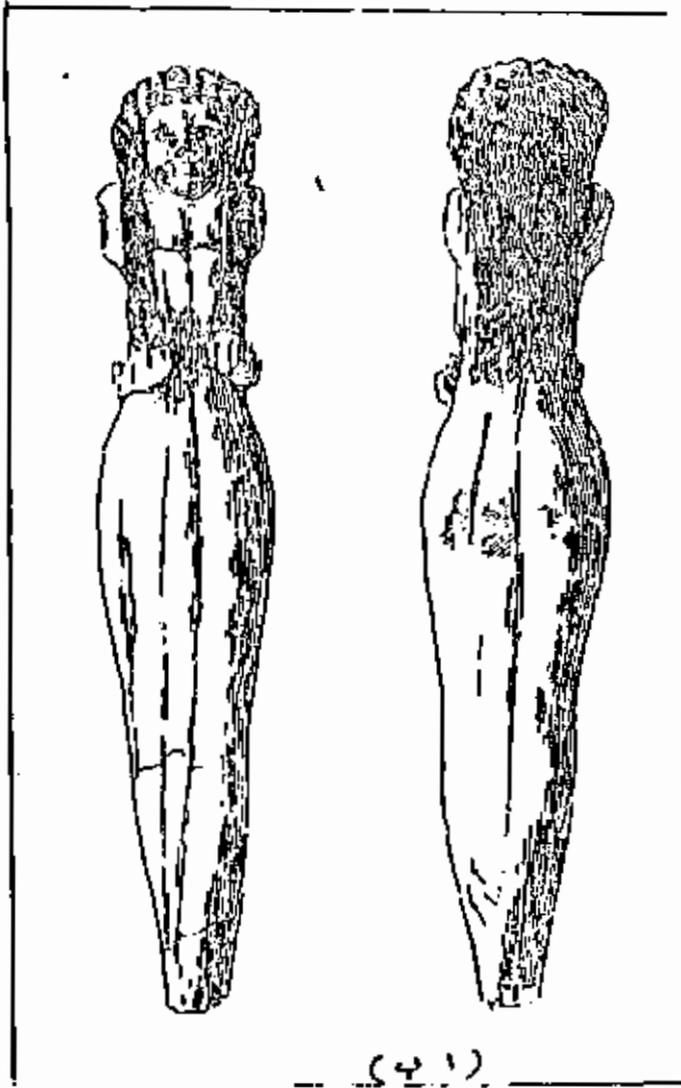
Dates O; Ibid. P. 126.

Datesm O; Ibid, p. 127, Figs 27, 28, 29.

B A R. III, Sec. 584.

Corippus, Johannis, II, 137.

Strabo : XVII, P. 831



شمال من العاج تظهر نماذج من الستر والأرواب التي استخدمت في  
عصور ما قبل التاريخ في مصر.

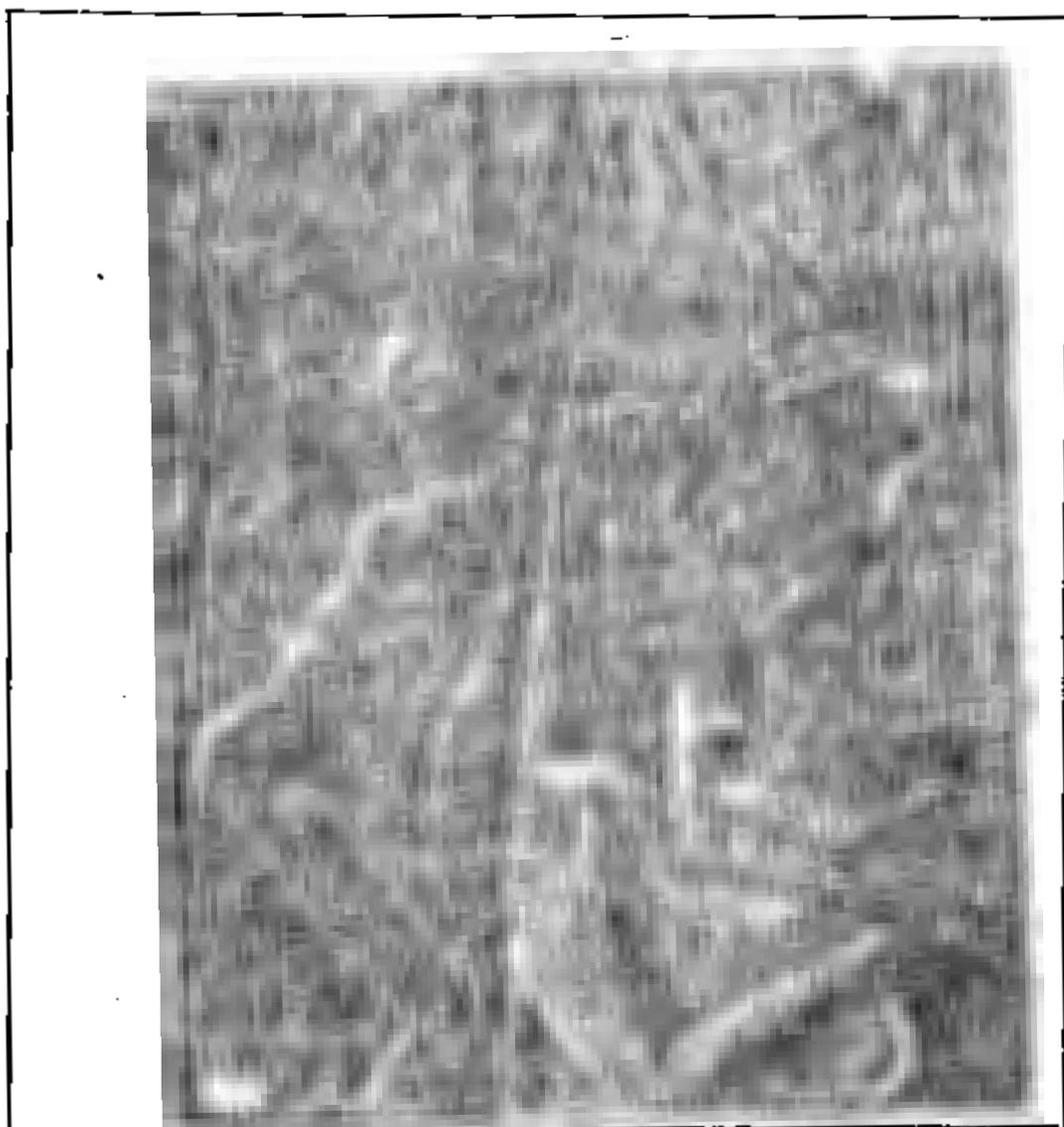
Quibell, B; Hierakonopolis, PL. IX.

شكل رقم (أ ١)

نموذج آخر من الستر التي تمتد من الوسط إلى أسفل الركبة صورت  
على شمال من العاج يرجع إلى ما قبل التاريخ.

Quibell, B.; Ibid. PL. VII.

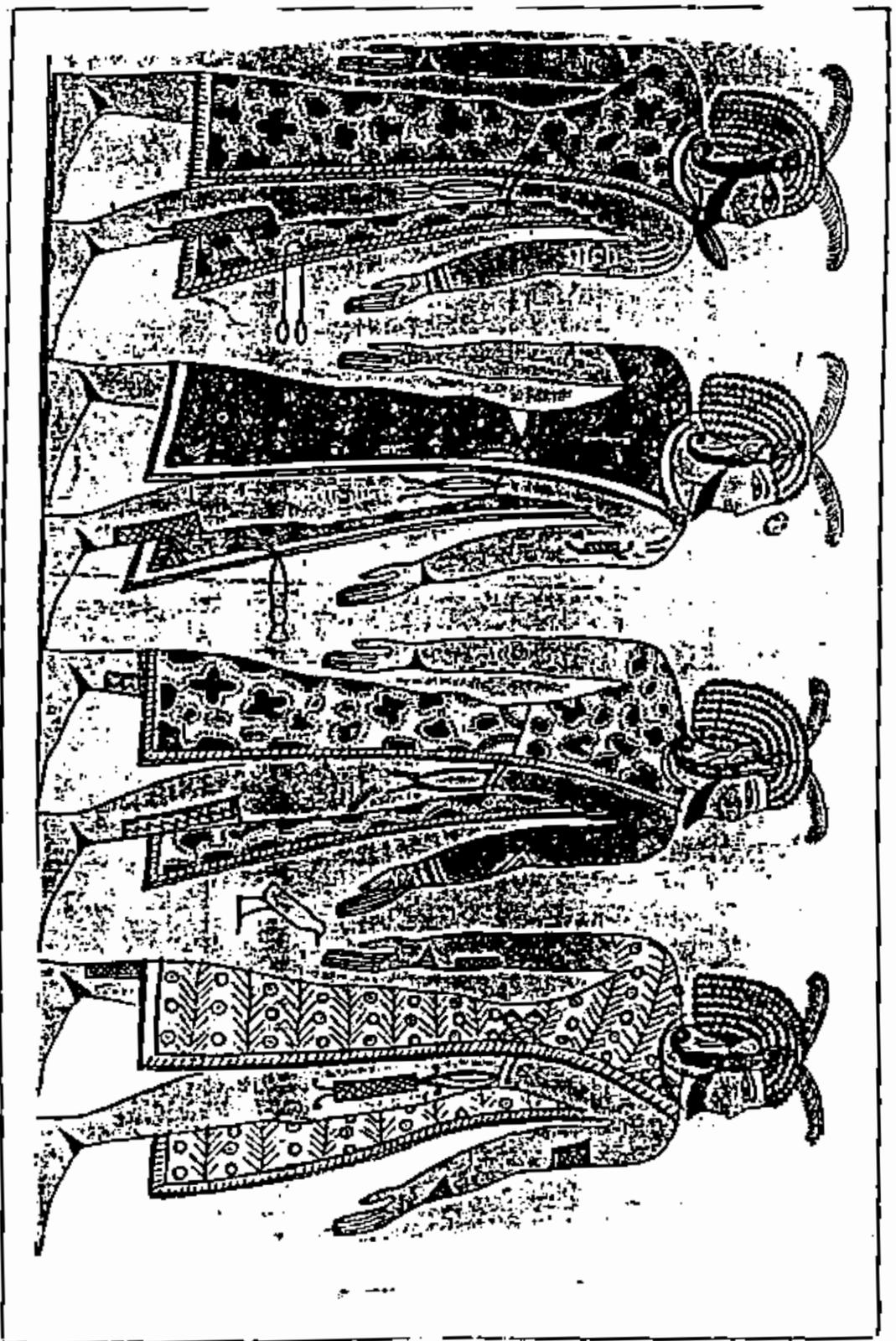
شكل رقم (ب ١)



تصويوة ترجع إلى عصر تحتمس الرابع توضح أحد الأمراء الليبيين  
وهو يرتدى سترة مفتوحة من الأمام ومثبت عليها الوالى النكري.

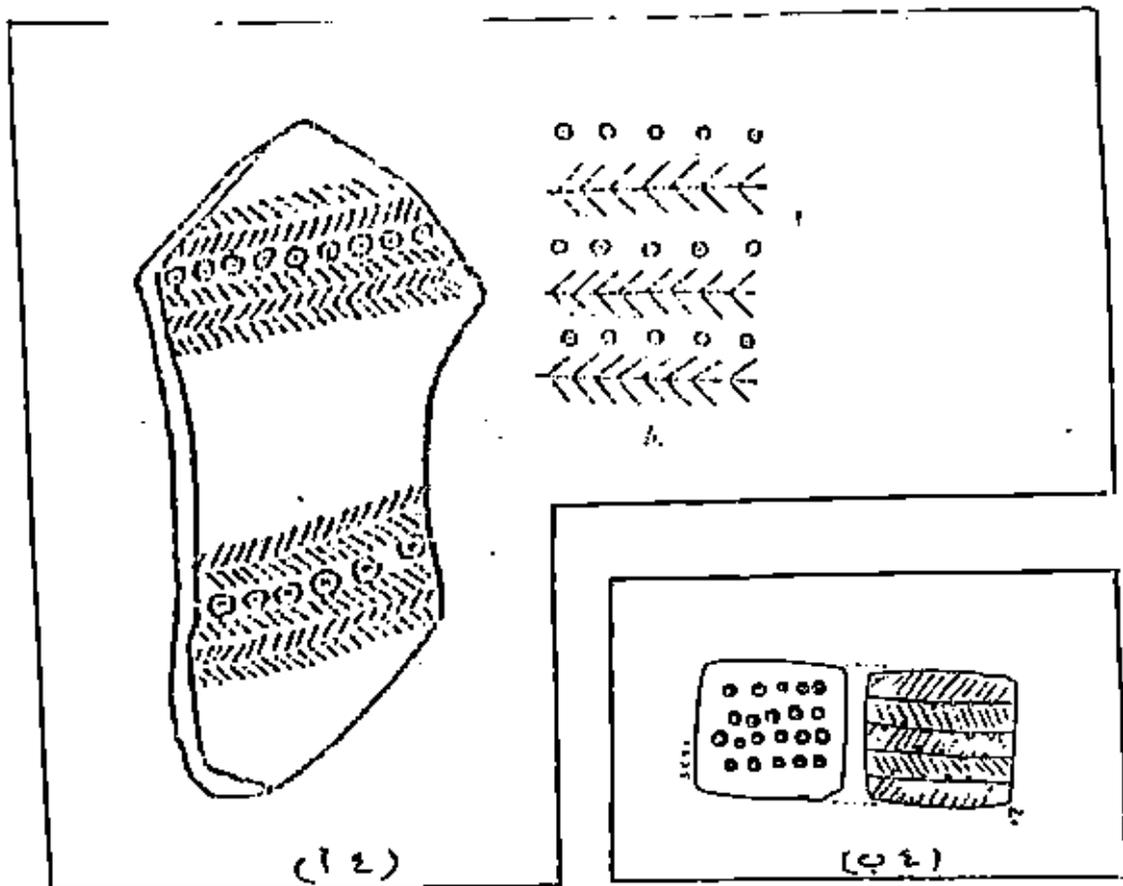
شكل رقم (٢)

Bates, O.; Eastern Libyans, Fig. 31



بمناسبة احتفالات عيد الأعياد في مصر.

Bates, O. *Ibid*, pl. 111

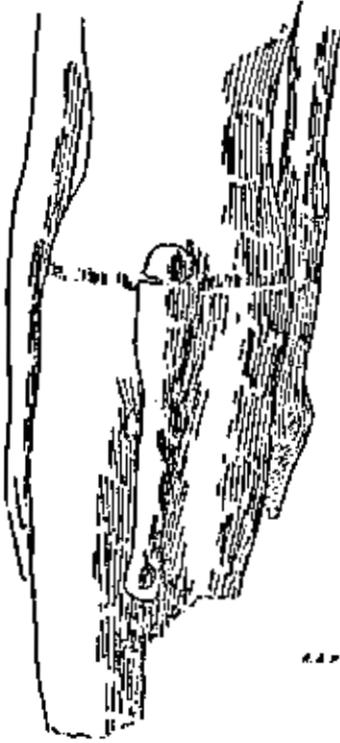


شكل رقم (٤ أ) الأساليب الزخرفية التي وجدت على جدران الشققة التي عثر عليها في سردينيا ويجوزها قطعة من المنسوجات اللببية استخدمت نفس أسلوب الزخرفة السردينية.

Bates, O.; Ibid. Fig. 16. a-b.

شكل رقم (٤ ب) قطعة من العاج عثر عليها في نقارة استخدمت نفس الأساليب الزخرفية.

Petrie, & quibell., Nagada and Ballas. P L LXII

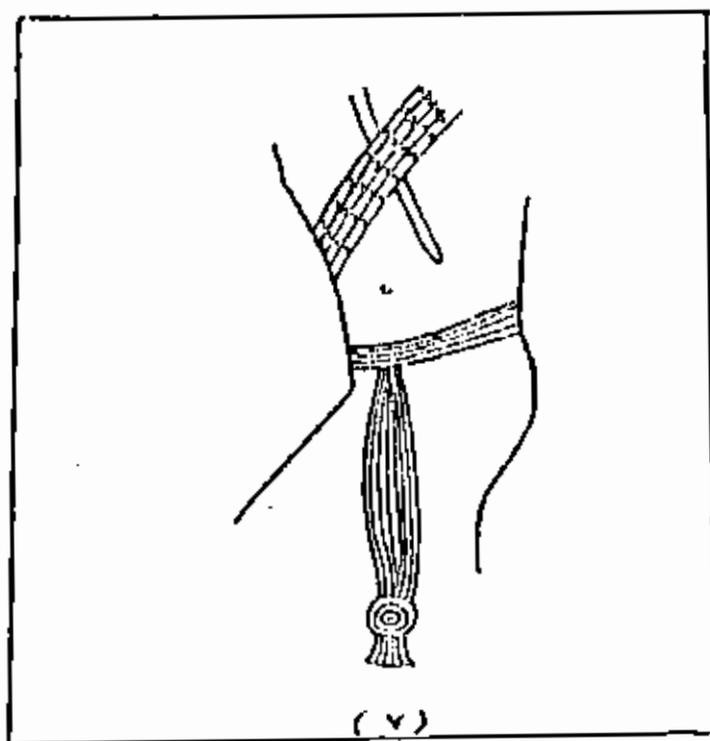
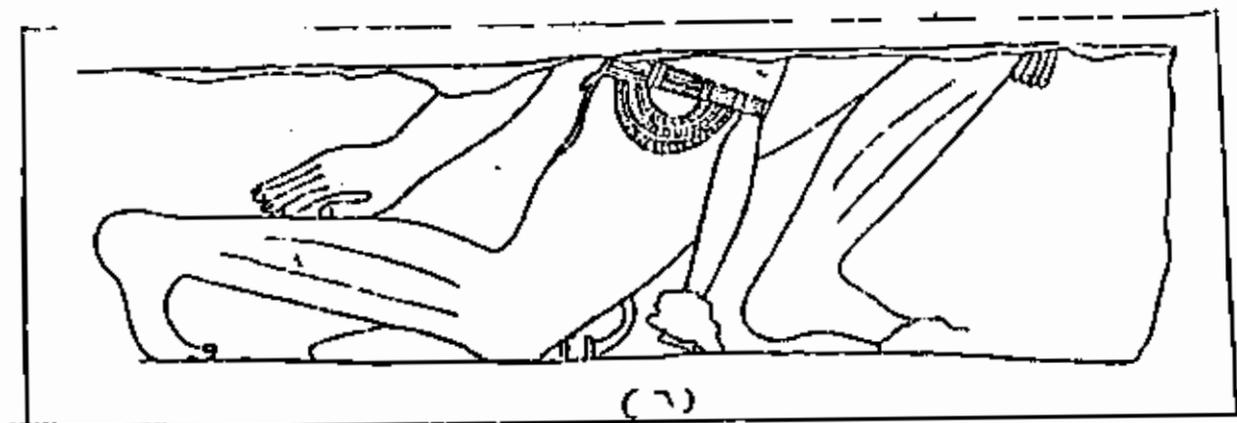


(٥)

نماذج من اشكال الوالى الذكرى على تماثيل من العاج ترجع إلى  
عصور ما قبل التاريخ فى مصر.

شكل رقم (٥)

Quibell., Hierakonopolis, PL. VII, VIII.

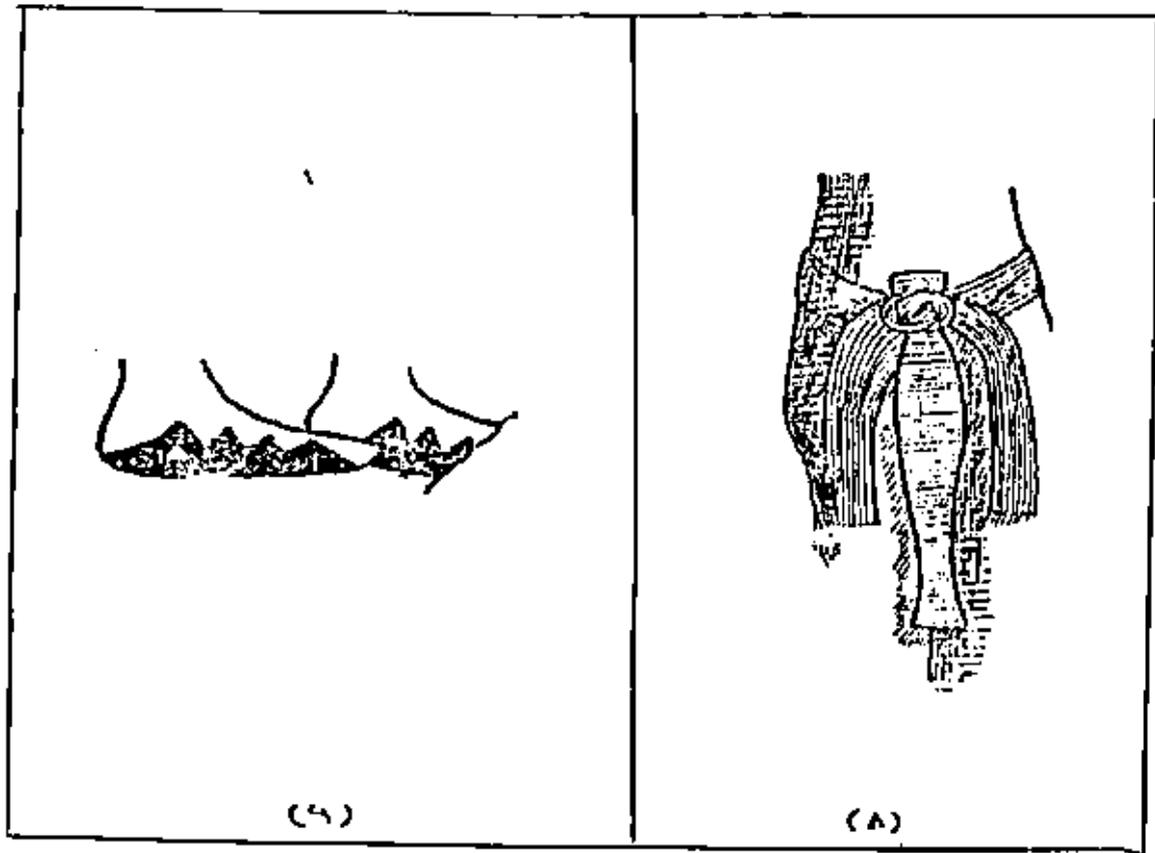


شكل رقم (٦)  
 لمسودج لأحد أشكال الواقي الذكرى على تصويرة من مقبرة (سى  
 لوسر رع) الأسرة الخامسة.

Bates, O.; Op.Cit., Fig. 19

شكل رقم (٧)  
 شكل جديد من الواقي الذكرى يرجع إلى عصر الدولة الحديثة وتتميز  
 بخطوط الزيتية الطولية وثبت عند نهايته دلالة كروية الشكل.

Bates, O : Ibid, Fig 21.



شكل رقم ( ٨ ) ' احد التماثل النبية المقدسة ويظهر أسلوبا جديدا لطريقة تثبيت الوالسي النكري.

Bates, O., Ibid. Fig. 26.

شكل رقم ( ٩ ) نموذج احد أشكال (الخسف) التي استخدمتها القهقار النبية.

Font-Wen

Bates, O. Ibid. Fig 30

ترجمة مقال

**Rechel Arie "Viajeros De Occidente a Oriente"  
Al-Andalus Y El Mediterraneo, Granada, 1995**

من كتاب

**Al-Andalus Y El Mediterraneo, Espana, 1996,  
p. 169 - 185**

ترجمة مقال

**الدكتورة واشيل أربييه 'رحلة من المغرب إلى المشرق' إحدى  
مقالات كتاب 'الأندلس والبحر المتوسط' غرناطة، ١٩٩٥م**

بحث مقدم من

الدكتورة

**سحر عبد العزيز سالم**

1

ترجمة مقال

Rechel Arie "Viajeros De Occidente a Oriente" Al-Andalus  
Y El Mediterraneo, Granada, 1995

من كتاب

Al-Andalus Y El Mediterraneo, Espana, 1996, p. 169 - 185

ترجمة مقال

الدكتورة راشيل آريه "رحالة من المغرب إلى المشرق" إحدى مقالات كتاب  
"الأندلس والبحر المتوسط" غرناطة، ١٩٩٥م

تميز العصر الوسيط بوجود تبادلات ثقافية بين مسلمى الأندلس  
ومعاصريهم من المشرق في ظل الخلافة العباسية؛ وأكثر تلك الصلات الروحية  
عمقاً تتمثل في الحج للأراضى الإسلامية المقدسة، مما حمل كثيراً من الأندلسيين  
إلى المشرق.

وكان النقاء الأندلسيون ينتقلون من بلادهم طلباً للمعرفة، مدفوعين بدافع  
الرغبة في المشاركة والحضور في مجالس شيوخ المشرق المشهورين للحصول  
على إجازاتهم وطمناً في إثراء مكانتهم العلمية بين أقرانهم ومواطنيهم.  
وكان طلاب العلم والحجاج الأندلسيون يبدأون رحلة طويلة كانت تنتهى  
بهم إلى بلاد العرب (الحجاز) ليمودوا بعد ذلك في النهاية إلى موطنهم الأم.

وكانوا يتغربون طوال أشهر وأحياناً سنوات عديدة مجتازين البحر  
المتوسط مواجهين مخاطر الملاحة كما كانوا يجتازون برّاً طريقاً لا نهاية له  
متموجاً بسبب تعرجات سواحل أفريقيا ثم بعد ذلك خلال صحارى ليبيا حتى  
يصلوا إلى ضفاف النيل الخضراء، وابتداء من القرن الثانى عشر شهد الغرب  
الإسلامى ظهور نوع أنبى أصيل يتمثل فى أدب الرحلة. وكانت روايات  
الرحالة تخضع للتقاليد المشرقية وعلى الأخص للرصيد الثقافى القديم الذى كان  
يسود فى الساحل الشرقى من حوض البحر المتوسط وكانت كتابات البحريين

بوجه خاص لها أثر عميق على تطور الأدب الجغرافى خلال القرن العاشر. ومع ذلك فعلى تراب الأندلس نشأت الرحلة وبصفة خاصة عندما تحققت وحدة الغرب الإسلامى بفضل المرابطين والموحدين وكانت مادة الرحلة تقوم على طلاب العلم الذين يتوجهون للأراضى الإسلامية المقدسة للحج واطلب العلم والاستزادة على أيدي علماء فى الحواضر المشرقية الكبرى مثل بغداد والقاهرة ودمشق مسجلين انطباعاتهم فى الرحلة يوماً بعد يوم وأحياناً ساعة بعد أخرى على هيئة يوميات حيث يصفون المفاجآت والصعوبات التى حدثت لهم أثناء رحلتهم، ويمثل أبو حامد الغرناطى (١٠٨٠ - ١١٦٩ - ١١٧٠م) النموذج الأول للرحالة المغاربة وقد ترك موطنه وهو فى حوالى الثلاثين من عمره ولم يعد إلى بلاده أبداً<sup>(١)</sup>. وعاش فى القاهرة ودمشق وبغداد لسنوات طوال ودفعه حب المغامرة للوصول إلى الحدود القصوى لأراضى الإسلام وفى عام ١١٣٠م وجدناه فى إيران وبعد ذلك وصل إلى مصب نهر الفولجا. وميزور بعد ذلك بقليل المجر حيث أقام لمدة ثلاث سنوات حتى عام ١١٤٣م، ثم اجتاز بلاد الصقالبة ولحق بخوارزم ومن هناك توجه إلى بخارى، ومرو، ونيسابور، والرى، وأصفهان والبصرة، حتى أترك بلاد العرب لأداء الحج ثم تابع رحلته وأقام فى بغداد والموصل، وختم حياته فى دمشق بسوريا. وفى بغداد وبعدها فى الموصل ألف أبو حامد كتابين آخرين تلبية لرغبة صناعه ومريديه العراقيين، هما كتاب (المعرب عن بعض عجائب المغرب) وكتاب تحفة الأكياب (أو الأحباب) ونجعة<sup>(٢)</sup> الإعجاب) اللذين يحتويان على كثير من الحقائق الهامة والإرشادات القيمة الدقيقة عن مواضع وشخصيات قابلها فى جولاته<sup>(٣)</sup>.

ويغلب على رواياته فى الرحلة الطابع الخيالى وبعض المعانيب مما جعل الأستاذ سيزار نوبل يقدر من جانبه فى أبى حامد تشبعه بالمعاطفة الإنسانية وابتعاده عن الغطرسة الشخصية التى تحولته إلى "عالم غريب للأجناس والفنون

(٢) صحتها نخبه.

الشعبية في عصره" وهو يصفه بقوله : «أبو حامد رحالة متجول، اتصف بالبساطة، كما كان واعظاً في بعض الأحيان على قدر من الثقافة وليس عالماً متبحراً، كان يبدو بشوثاً مع الآخرين له مكانة عالية بين الناس وكان على علاقة طيبة بالجميع سواء أكانوا من الشخصيات الرقيقة أم أفراد الشعب البسطاء وكان يوجه محبه صادقة نحو الشعوب والأشخاص الأسيو/ أنريقيين الذين كان يطوف بهم، تعمقت خلال ما يقرب من عشرين سنة عن طريق علاقات مختلفة أسرية وعاطفية. وكانت تقديراته تنسم -بالإضافة إلى الرؤية الواضحة للموصوف في حد ذاته- بالفهم الإنساني الذي تبحث عنه عبثاً في شخص آخر لا يملك القوة الفعالة لمولفنا؛ لقد كانت كتاباته الوصفية سهلة ذات طابع متحرر ورائع وكانت تهتم بوجه خاص بكل غريب وعجيب، ولا تجعلنا نراه يمثل عالماً متعمقاً بعلمه وإنما رجلاً متفهماً ذا رؤية واسعة، ولى الوقت نفسه متعمقاً في التفاصيل غنية بالمعنة الإنسانية»<sup>(٣)</sup>.

أما رواية الرحلة عند ابن جبير فقد ارتبطت بأستاذه الأول (١١٤٥-١٢١٧)<sup>(٤)</sup> وهذا الأديب البننسى تلقى علومه في شاطبة حيث كان والده يعمل كاتباً لدى الموحدين، وتلقى التعليم التقليدي شأنه شأن متقني الأندلس وعلمائه. كما اطلع على مبادئ العلوم الدينية والآداب واكتسب الوسائل لاستخدام ملكته الشعرية. وقد اختاره الأمير الموحدى أبو سعيد عثمان ابن الخليفة عبد المؤمن حاكم سبتة كاتباً خاصاً له، وبعد ذلك رافقه في منصبه التالي عندما أسندت إليه ولاية غرناطة، ثم التحق ابن جبير بخدمة أمير موحدى آخر وهو الذى حثه على شرب الخمر وقد أكرم كاتبنا على أن يذهب للحج لى هذا العام نفسه تكفيراً عن خطئه هذا، وحاز شهرته بفضل رواياته الشيقة عن رحلته إلى مكة المكرمة.

وغادر ابن جبير غرناطة في ١٩ شوال سنة ٥٧٨هـ (١٥ فبراير ١١٨٣م) ووصل إلى سبتة عن طريق طريف، وركب سفينة جنوية فى طريقه إلى الإسكندرية مرت بجزيرة سردانيا وصقلية، وأريطش، ولذا فقد تأخر لمدة

شهر في الوصول إلى الميناء الذي يهدف إليه، وروى لنا ابن جبير بكل مصداقية المضايقات التي تعرض لها في ائديوان الجمركي المصري.

وقد زار القاهرة أثناء توجهه إلى البحر الأحمر للوصول إلى جدة، وبقي في مكة ما يزيد على تسعة أشهر بعد أدائه فرائض الحج ثم انتقل بعد ذلك إلى المدينة وتابع رحلته عبر الصحراء حتى الكوفة، واستكمالاً للرحلة سار حتى بغداد والموصل وحلب Aleppo وحماة وحمص ودمشق حيث أقام شهرين ونصف ثم تابع رحلته إلى صور ومن هناك إلى عكا وبعدها ركب في رجب ٥٨٠هـ (أكتوبر ١١٨٥م) في سفينة جنوبية متجهة إلى صقلية بنية العودة إلى الأندلس، وعندما أترك مسينا بعد اجتياز صعب انتهى الأمر بفرق السفينة وبقي في صقلية لمدة ثلاثة أشهر ونصف حتى ركب سفينة من جديد في تراباني ووصل إلى كرتاجنة في سنة ١١٨٥م في شرق الأندلس.

وعند عودته إلى غرناطة، نعم بسلطة روحية كبيرة فقد أصبح أستاذاً للحديث والعلوم الدينية التقليدية وللصوفية أيضاً. واستمر بعيداً عن العامة لكنه قام بدور المقتى والحكم. وعن رحلته الثانية إلى المشرق التي استمرت من ١١٨٩ - ١١٩١ / ١١٩٢م. واستقر بالإسكندرية حيث انكب على التعليم، وبعد شهور رحلته، توفي هناك في ٢٧ شعبان ٦١٤هـ / ٢٩ نوفمبر ١١٢١٧م، وكانت رحلة ابن جبير نموذجاً احتذاه حجاج آخرون ومؤلفون كثيرون متأخرون، ولقد عرف كيف يسجل ملاحظاته اليومية ويصف البلدان التي كان يجتازها ويعند الآثار التي كان يزورها، وكان حبه للرحلات البحرية المثيرة يقدم لنا مدى احترامه للبحر مصدر إلهامه. وهكذا يذكر في مذكراته رحلته البحرية الأولى التي بدأت على متن البحر إزاء جبل شلير في ٢٥ مارس سنة ١١٨٣م. وبعد أربعة أيام من الركوب في الطريق تجاه قصر مصمودة (القصر الصغير) وبعد اجتياز بحري يسره الله تيسيراً عجيباً والحمد لله، استكملوا الرحلة إلى سبتة حيث ألفوا بها مركباً للروم الجنوبيين مقلعين إلى الإسكندرية بحول الله عز وجل

نسهل الله علينا في الركوب فيه «ويمضي في روايته قائلاً من سببته<sup>(٩)</sup> : «وكان طريقنا في البحر محاذياً لبر الأندلس وفارقناه يوم الخميس ٣٠ مارس عندما حاذينا دانية. وفي صبيحة يوم الجمعة (٤ مارس) قابلنا بر جزيرة يابسة ثم يوم السبت بعده قابلنا بر جزيرة ميورقة ثم يوم الأحد بعده قابلنا جزيرة منورقة ... وفارقنا بر هذه الجزيرة المذكورة، وقام معنا بر جزيرة سردانيا أول ليلة الثلاثاء... (وهو الثامن من مارس دفعة واحدة على نحو ميل أو أقل ... فكان قطعاً مستغرباً في السرعة وطراً علينا من مقابلة البر في الليل هول عظيم عصم الله منه بريح أرسلها الله تعالى في الحين من تلقاء البر فأخرجنا عنه والحمد لله على ذلك. وقام علينا نوء هال له البحر صبيحة يوم الثلاثاء المذكور وبقينا مترددين بسببه حول بر سردانية إلى يوم الأربعاء بعده فاطلع علينا في حال الوحشة وانغلاق الجهات بالنوء فلم نميز شرقاً من غرب، مركباً للروم قصدنا إلى أن حاذانا، فسنل عن مقصده، فأخبر أنه يريد جزيرة صقلية وأنه من قرطاجنة عمل مرسية. وقد كنا استقبلنا طريقه التي جاء منها من غير علم فأخذنا عند ذلك في اتباع أثره والله الميسر لا رب سواه ... إلى أن وصلنا طرفاً من البر المذكور يعرف بقوسمركة ... وفي مدة مقامنا بالمرسى المذكور جدنا فيه الماء والخطب والزاد، وفي الثلاثاء الخامس عشر من مارس فارقنا بر سردانية المذكورة، ويسر الله علينا في التخلص من بحرها لأنه أصعب ما في للطريق والخروج منه يتعذر في أكثر الأحيان والحمد لله على ذلك. وفي ليلة الأربعاء بعدها من أولها عصفت علينا ريح هال لها البحر وجاء معها مطر ترسله الريح ويضيف ابن جبير : «وترسله الريح بقوة كأنه شأبيب مهبام فعظم الخطب واشتد الكرب وجاء الموج من كل مكان أمثال الجبال السائرة فبقينا على تلك الحال الليل كله واليأس قد بلغ ما مبلغه وارتجينا مع الصباح فرجة تخفف عنا بعض ما نزل بنا، فجاء النهار وهو يوم الأربعاء التاسع عشر من ذي القعدة بما هو أشد هولاً وأعظم كرباً وزاد البحر اهتياجاً وارتدت الأفاق سواداً واستشرت الرياح والمطر

عصوفاً حتى لم يثبت معها شراع فلجأ إلى استعمال الشرع الصغار فأخذت الريح أحدها ومزقته وكسرت الخشبة التي ترتبط الشرع فيها وهي المعروفة عندهم بالقرية.

وألمنا على تلك الحال النهار كله فلما جن الليل فترت الحال بعض قنور سرنا في هذه الحال كلها بريح الصواري سيراً سريعاً وفي ذلك اليوم حائناً بر جزيرة صقلية.

وفي صبيحة يوم السبت ٢٥ مارس اطلع الله علينا البشري بالسلامة بظهور منار الإسكندرية على نحو العشرين ميلاً وبالإضافة إلى خبرته بالبحر، كان ابن جبير كما وصفه موريس جونغرى ديمومبينس<sup>(١)</sup> عارفاً بخطط المدن ولديه حس بالمران. وقد امتدح الموصل وحنانها وأعجب بنواحي نصيبين التي كانت تتعارض مع بدوية المدينة. أما أوصافه لحلب ودمشق فلم تكن بالتقاهات الأدبية، كذلك لم يكن غير مكترث أمام عظمة الطبيعة ولا الهواء الحيوى لتجد بعد خروجه من جحيم الحجاز، ويبدو أن ذلك أيقظ فيه الرغبة التي كان يحس بها لأسلافه عند اجتيازهم أراضي الاستبس الفسيحة.

وعن السكان الذين عاش بينهم ابن جبير يقدم لنا معلومات في رحلته اعتبرت من المصادر الرئيسية عن تاريخ الحروب الصليبية وعن الأوضاع السياسية والاجتماعية في المناطق التي اجتازها وعن الحج في مكة والأخطار الملاحية التي تمر بهم أثناء عبورهم في البحر المتوسط في العصور الوسطى. وقد تميز ابن جبير بإحساسه القوي وروحه المتزنة للغاية والمنطلقة للمعرفة. أما حساسيته الدينية فقد لمعت في فقرات معينة، ظهر خلالها مدى انزعاج المستنار السابق للحاكم الموحدى لغرناطة من تقدم السحيين في سورية وصقلية وهو الذي كان لديه ثقة مطلقة في الرسالة العالمية لأسرة الموحدين.

ولم يكن اهتمامه بأحوال الشعوب والعزاريين في المشرق الإسلامى عميقاً، ومع ذلك فإن أسلوبه كان سلساً ومركزاً ومهتزاً في الفقرات التي صور

فيها الأحداث على النحو الذي يمثله الجواله المحدثون. ويعتقد ريجيس بلاشير أن ابن جبير «كلما حدد ملامح حشد حركي أو جمع حيوي، كان يعرف كيف يصفه على نحو صادق وشخصي للغاية وثابت كما رأته عيناه الثاقبة المدققة»<sup>(٧)</sup>. وكان أسلوب ابن جبير زاخراً بالمحسنات فقد لجأ إلى استعمال النثر المقتنى في وصفه للمدن والظواهر العامة لكل بلد. أما شعره فكان يميل إلى طابع الحكم والأمثال وهو تقليدي وبرهن على بساطة في الإحساس والتجربة.

وقد اتخذت يوميات الرحلة إلى الأراضى المقدسة الإسلامية شكلاً جديداً في النصف الأول من القرن الثالث عشر بفضل محمد العبرى أحد الأدباء المغاربة<sup>(٨)</sup>. ونجهل تاريخ مولده ووفاته ولكننا نعلم أن يرجع بالنسب إلى أصول عربية بعيدة وأنه كان ينتمى إلى قبيلة حاحة التي كانت تنزل بالقرب من المدينة المغربية الحالية الصويرة التي كانت تسمى من قبل بموجادور، ونشأ في بيئة أسرية. ولعله عاش في مراكش. وقد ترك أرضه في ذى القعدة سنة ٦٨٨هـ (١٠ ديسمبر ١٢٨٩م)، وقرر الارتحال عبر الطريق البري، وزار تلمسان Termecen حيث عقد روابط روحية مع لقيائها وعلمائها المحييين وذلك قبل انتقاله إلى مليانة Milliana، وبجاية Bugja وقسنطينة وبونة وباجة وتونص حيث أجرى مناقشات طويلة مع علماء أفريقية. ورحل إلى القيروان حيث اجتذب مسجدها الجامع إعجابه، ومن هناك انتقل إلى قابص وطرابلس. وتابع رحلته مجازاً الصحراء إلى أن وصل إلى الإسكندرية حيث أتاحت له الفرصة فوصف ميناء الإسكندرية، ومن هناك لحق بالقاهرة ومن العقبة نخل الحجاز حيث أتم الحج في مكة والمدينة، وفي العودة تخير طريق فلسطين ليزور حبرون والقدس عانداً بعد ذلك عبر القاهرة والإسكندرية. وقد غير قليلاً من طريقه بعد أن اجتاز إقليم طرابلس، فقد سار من قابص إلى صوسة، وبعد ذلك تابع طريقه بمحاذاة الساحل حتى تونس. ووصل إلى بجاية عبر مليانة ووهران وتلمسان وفي المغرب وطنه كانت فاس ومكناس وازمور هي آخر محطاته، وتنتهى

رحلته بقصيدة طويلة، وفي رحلة العبدري نجد أن الأوصاف الفخمة للمدن الشهيرة ليست سوى أسلوب أدبي معتنى به وأسلوبه في ذلك يكاد يكون دائماً مفتعلاً، فإن سرده للرحلة كان مملوفاً بأبيات أنشدتها جماعة من المتصلين بالمؤلف.

إن الاهتمام بدراسة فكر الفقهاء يؤكد على الغايات الصوفية للعبدري<sup>(٩)</sup> فهو يقدم حقائق كثيرة عن الحالة التي كان عليها الفكر الإسلامي.

إن مؤلفي المقال الذي كتب عنه في دائرة المعارف الإسلامية رقم ٩ يرون أن نيته الأخلاقية كانت «تهدف إلى إبراز مدى الفقر المادي والروحي لأفريقيا والمغرب الأوسط في عصره» ولهذا السبب فإن رحلته تعتبر إسهاماً رئيساً في التاريخ الثقافي لشمال أفريقيا.

وعلى نسق الطابع الأدبي نفسه الذي شرع فيه العبدري ينتمي كتاب، لفتيه أندلسي مغربي لا يمكن فصل حياته ولا كتابه عن تاريخ الأدب في مملكة غرناطة وأعنى به ابن رشيد الذي ولد في سبتة سنة ١٢٥٩م حيث درس العلوم النقلية والنحو<sup>(١٠)</sup>.

وفي عام ١٢٨٤م قرر الرحيل إلى المشرق للحج والتوسع في علومه. وركب سفينة في المرية حيث اجتمع معه ابن الحكيم الرندي وزير البلاط النصري فيما بعد<sup>(١١)</sup>.

وخلال ثلاثة أعوام طاف كلاهما بأفريقية، ومصر، وسورية، والحجاز متابعين دروسهما على أيدي أشهر شيوخ العلم في المشرق وشمال أفريقيا. وعند العودة إلى سبتة أمضى ابن رشيد عدة سنوات لا نعرف فيها شيئاً عنه، ورحل بعد ذلك إلى مملكة بنى نصر في سنة ٦٩٢هـ (١٢٩٢ / ١٢٩٣م) معتزداً على العون الذي قدمه إليه رفيق رحلته القديم المدعو ابن الحكيم. وإلى جانب وظائف أخرى مختلفة تولى منصب إمام وخطيب بقرناطة، وبعد اغتيال حاميه في مارس ١٣٠٩م عاد ابن رشيد إلى المغرب حيث عهد إليه عثمان بن أبي يوسف

السلطان المريني بإدارة خطبة الجامع القديم بمراكش وتوفى في ٢٣ محرم سنة ٧٢١ / ٧٢٢ هـ (نبرابر ١٣٢١م) في فاس مقدرًا من الجميع.

وتحتفظ مكتبة دير الإسكوريال بالجزء الأكبر من روايته لرحلته على هيئة قطع مخطوطة بعنوان "ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجبة الوجبة إلى الحرمين مكة وطيبة" حيث يحكى عن إقامته في تونس ودمشق والقاهرة، وتحتوى هذه الرحلة على معلومات جغرافية نادرة وبعد فإن المصادر أجمعت على الثناء عليه وعلى اتساع معرفته فقد تخصص في تسجيل القضايا التي عالجها وناقشها مع المتقين الذين لاقاهم في طريقه.

أما خالد البلوى فهو من الحجاج الأندلسيين الذين رحلوا في القرن ١٤ في قوافل إلى مكة، وقد كتب يوميات رحلته إلى الأراضى المقدسة "تاج المفرج في تحلية علماء المشرق" وقد نشرت في الرباط منذ عدة سنوات<sup>(١٢)</sup>، وينحدر البلوى من أسرة من الأدباء ترتقى إلى أصول عربية يمنية وولد في كنفطورة (المرية)، وتلقى البلوى في غرناطة ثقافة أدبية وفقهية راسخة.

وفي أكتوبر ١٣٣٥م عندما بلغ الثالثة والعشرين، ركب سفينة في العربة ووصل حتى هينن Hunnayn وبعدها رحل إلى تلمسان والجزائر وبجاية وقسنطينة وبونة حتى وصل إلى تونس حيث أقام أكثر من ثمانية أشهر ثم أبحر إلى الإسكندرية، وفي هذه المرحلة التقى بحاج أنطلسي آخر هو الشاعر ابن حاج نيمري ابن رجل غرناطي سامى المقام<sup>(١٣)</sup>، وبعد شهر وصل إلى القاهرة حيث بقى خمسة عشر يومًا خصصها للدراسة.

وكان يحكم هناك آنذاك محمد بن قلاوون السلطان المملوكى الذى كانت له بعد ذلك بقليل مراسلات رسمية مع غرناطة النصرية. وقد جاز كاتبنا بعد ذلك كل من غزة وحبرون حتى وصل إلى بيت المقدس حيث قضى شهرين. كما مر بالكرك والعلا ووادى القرى حيث وصل إلى المدينة ومن هناك وصل إلى مكة في ذى الحجة سنة ٧٢٧ هـ (يوليو ١٣٢٧م). أما رحلة العودة فقد أدت به إلى

القدس والرملة وعسقلان حتى وصل إلى القاهرة والإسكندرية ومن هناك رجع إلى تونس جاعلاً من طبرق محطة له في برقة.

ويعد أن طاف بالمغرب الأدنى والأوسط وصل إلى هنين Hunayn حيث أبحر أخيراً في اتجاه المرية. ومن جديد وطأت أقدامه أرض الأندلس، وكان ذلك في يونيو من عام ١٣٤٠م بعد غيبة خمسة أعوام، وتولى قضاء قنتورية وبعدها برشانة وعلى نهر المنصورة أكمل محطات رحلته حتى أنجز كتابه في ربيع الأول سنة ٧٦٨هـ (نوفمبر / ديسمبر ١٣٦٦م).

أما لسان الدين بن الخطيب الوزير والمؤلف النصرى، فقد ترك لنا صورة طريفة للبلوى. وقد صاحب ابن الخطيب السلطان يوسف الأول في زيارته التفتيشية على الأراضى الشرقية لغرناطة سنة ١٣٤٧م، وقد صور لنا قاضى برشانة في صورة طريفة وذلك عندما خرج لاستقبال الركب الملكى فوصفه لنا كرجل لطيف في ترحابه، مختال ومزهو بتقائنه الأدبية مقلد في تكلف شديد وجدية تامة للهجات المشاركة. وبدأ ابن الخطيب في هجائه، إذ كان مخدوعاً بمظهره كحاج بين رجال إدارته، وكان يضع طينساتنا أبيض على عادة أهل الحجاز كما ترك طرفاً من عمامته ينسدل على جبهته تماماً مثل الجمل بلجامة على أنفه على حد وصف ابن الخطيب<sup>(١٤)</sup>.

وقد جاء أكثر هجاء ابن الخطيب وذمه لقاضى برشانة على هيئة نثر مقفى مأخوذ من كتاب البرق الشامى<sup>(١٥)</sup> للكاتب المشرقى عماد الدين الأصفهانى موهماً بأنها أبياته. وفي القرن ١٧ كثر المقرئ التلمسانى اتهام ابن الخطيب بانتحال الأبيات كما علق على هجائه للبلوى بأنه كان عنيفاً<sup>(١٦)</sup>، ولم يكن البلوى في كتابه عن رحلته يهدف إلى معالجة تاريخية أو جغرافية جادة، وكذلك لا يتسم وصفه لكل من الإسكندرية والقاهرة بالمصادقية والأصالة وملاحظاته عن ديوان الإسكندرية والمضايقات التى تعرض لها كثير من الرحالة المغاربة المسلمين أوردها كل من ابن جبير وابن رشيد.

وكذلك نجد أن وصفه لمارستان القاهرة والأهرام يذكرنا بما أورد ابن جبير. أما على الفقرات الكبيرة التي خصصها البلوى لوصف الترافة والمساجد في القاهرة فهي تتم عن تعصبه الديني وعن مشاعره الحية التي إظهارها في مناسبات مختلفة، مثلما كتب عن النصوص الجنائزية وشواهد القبور في تلك الأماكن والتي طالما أثارت إعجابه، ولم يأت بروايات غريبة في سياق حديثه عن الرحلة لاسيما عند عرضه لأخطار الطريق، واستدعائه للأحداث والخطوب التي ألمت به في طريقه الطويل.

وقد أفاد البلوى من إقامته في كل من المغرب والمشرق في متابعة الدروس التي تلقاها على أيدي أكبر العلماء في عصره وللحصول على إجازاتهم، كذلك قدم لنا بأسلوب نخم، مختصرات للمناقشات التي دارت بينه وبين علماء المشرق والمغرب الإسلامي، ونقل لمواطنيه الأندلسيين بعض النصوص الشرعية والنثرية التي لا زالت مقفولة وغير معروفة حتى الآن.

وتتدرج روايته للرحلة ضمن حلقات سلسلة العلاقات، والروابط الثقافية بين الأندلس وباقي أراضى العالم الإسلامي.

وفي القرن الرابع عشر أيضًا يظهر رحالة آخر، ليعطينا بعدًا جديدًا في نسج أُنْب الرحالة ذلك هو ابن بطوطة الذي ولد في طنجة في سنة ٧٠٣هـ (١٣٠٤م) حيث تلقى علومًا فقهية قوية<sup>(١٧)</sup>.

ولى سنة ١٣٢٥م عندما بلغ إحدى وعشرين سنة رحل إلى المشرق عبر تونس ومصر والشام لأداء فريضة الحج في مكة لأول مرة، ثم رحل بعد ذلك إلى شرق أفريقيا ومصر والشام وآسيا الصغرى وأدرك الهند وأقام بعض السنوات في دلهي على نهر الجانج حيث أسند إليه قضاء المذهب المالكي، وقد كلفه محمد بن تغلق سلطان دلهي بالقيام بسفارة إلى الصين لرحل ابن بطوطة إلى تندهار على ساحل الدكن الغربي وأبحر حتى قاليقوت والمالديف حيث عمل قاضيًا لمدة ثمانية عشر شهرًا، ثم ذهب بعد ذلك إلى الصين.

وفى سنة ١٣٤٧م رجع عبر سومطرة إلى الهند ومنها إلى جنوبى شبه جزيرة العرب ثم صعد مرة أخرى ساعياً إلى عبور الخليج الفارسى ليزور فارس والعراق والشام ومصر، ومن جديد اتجه إلى مكة وأتم حجته الأخيرة.

وفى أبريل من عام ١٣٤٩م اتخذ القرار بالعودة إلى المغرب فأبحر من الإسكندرية حتى بلغ تونس وتابع بحراً حتى وصل تنس ومن هناك ركب براً حتى تلمسان ومنها تابع إلى فاس وكان ذلك زمن السلطان أبى عنان المرينى (أواخر شعبان سنة ٧٥٠هـ / أكتوبر ١٣٤٩م)، وبعد إقامة قصيرة فى فاس قام بزيارة مملكة غرناطة زمن السلطان يوسف الأول، وطاف أهم مدنها مثل رندة ومالقة وغرناطة حيث ترك لنا انطباعات وإشارات قيمة -وجاز من جبل طارق بحراً إلى سبتة، وعقب رحلته الجديدة عبر بلاد المغرب، قرر التجول فى بلاد الزنج\* ووصل إلى سجلماسة حيث أمضى أربعة أشهر، وهناك اقتنى جمالاً والتحق بقافلة من التجار الذين رحلوا فى محرم من سنة ٧٥٣هـ (فبراير ١٣٥٢م)، وقد عاد إلى فاس بعد أن أقام مدة عامين فى مالى وتمبكتو، ويبدو أنه لم يترك المغرب حتى وفاته سنة ١٣٧٢ وتسمى رحلة ابن بطوطة بتحفة النظار فى عجائب الأمصار وهى ليست مكتوبة بقلمه. بل كُلف ابن جزى القاتم بالكتابة فى ديوان غرناطة والذي كان قد عمل ليوسف الأول المرينى ومن بعده لأبى عنان بكتابة رحلة ابن بطوطة فى بلاط فاس فأملاه ابن بطوطة نصها بنفسه وتحت توجيهاته<sup>(١٨)</sup>. وقبل أن نتصدى لمناقشة محتوى رحلة ابن بطوطة تقرر أنها أثارت نوعاً من الحساسية لدى كتاب غرناطة. فابن الخطيب الذى لم ير الرحالة الشهير مطلقاً خصه فى موسوعته الخاصة بتراجم الرجال 'الإحاطة عن تاريخ غرناطة' بملاحظات ليست كلها مديحاً متشهداً بشيخه أبى البركات<sup>(١٩)</sup> قائلاً :

«هذا رجل لديه مشاركة يسيرة فى الطب، رحل من بلاده إلى بلاد المشرق يوم الخميس الثانى من رجب عام خمسة وعشرين وسبعمانه (١٤ يونيو ١٣٢٥م). فدخل بلاد مصر والشام والعراق وعراق العجم وبلاد الهند والسند والصين،

وصين الصين وبلاد اليمن، وحج عام ستة وعشرين وسبعمائة (١٣٢٦م) ولقى من الملوك والمشايخ عالماً وجاور بمكة، واستقر عند ملك الهند فحظى لديه وولاه القضاء، وأفاده مالا جسيماً وكانت رحلته على رسم الصوفية زياً وصحية. ثم نقل إلى بلاد المغرب ودخل جزيرة الأندلس فحكى بها أحوال المشرق لكذب وقال لقيته بقرناطة ..

وحدثنا لى تلك الليلة ونى اليوم قبلها عن البلاد الشرقية وغيرها. فأخبر أنه دخل الكنيسة العظمى بالقسطنطينية العظمى، وهى على قدر مدينة مسقة كلها، وفيها اثنا عشر ألف أسقف. ويضيف ابن الخطيب نفسه معلومات خاصة بملاحظته الشخصية معلقاً على أوصاف ابن بطوطة فيما يتعلق بالقسطنطينية «وأحاديثه لى الغرابة أبعد من هذا». ولم يكن ابن خلدون أكثر مديحاً له من معاصريه فقد اتهم الرحالة المغربى فى مقدمته بأنه شوه الحقيقة و«أن رجال الحاشية المرينيين فسروا هذه الروايات الغربية وعللوا ذلك بأن الرحالة روى أكاذيب».

ونصف رحلة ابن بطوطة تحت نوعية للكتابات غير متصلة العناصر. وقد عرفنا من ابن جزى كاتب النص أن ابن بطوطة لتتصر لى إيمانه على وصف البلدان التى زارها والطرف والحوادث التاريخية التى استطاع أن يتذكرها بالإضافة إلى أن الرحالة نفسه (ابن بطوطة) أخبرنا عند حديثه عن بخارى أنه تعرض لى البحر لقراصنة الهنود، ولقد عندئذ الملاحظات التى أخذها عن رحلته السابقة كلها، وهذا يفسر عدم وجود إشارات أو دليل للمسافر لى كتابه، أن أدلة المعالمين وعلم تسلسل التواريخ تطرح إشكاليات كما ذكر بوضوح السير هاملتون<sup>(٢٠)</sup> جب الذى وضع مصداقية تأكيدات ابن بطوطة موضع شك متخذاً مشكلة رحلة ابن بطوطة إلى المراكز التجارية ببلاد البلغار فى الفولجا الوسطى مثلاً لى بعض فقرات كتابه المتعلقة بجنوب شرق فارس، خلط بين ما رآه لى الرحلة وما حدث خلال رحلة أخرى فى مناسبة أخرى، ولكن توجد فى هذا

العمل بلا شك مادة تاريخية وتراجم وفيرة عن مصر وسوريا والحجاز، تسهل للباحثين المتميزين تتساق ذلك بالمادة العلمية المستقاة من مصادر أخرى، كذلك توجد روايات أسطورية أخرى تتسجم مع ما هو خارج عن المؤلف بالإضافة إلى توصيفات متكررة إلا أن الملاحظات الشخصية للمؤلف حول المراحل والأحوال الطبيعية (طبيعة الأراضي والمزروعات والمناخ والمحاصيل) وما يتعلق بالأفراد، وكل ذلك يثير الاهتمام، ويؤكد ابن جزى أنه كان يسجل كل ما كان يقصه الرحالة (ابن بطوطة) دون إضافة شيء أو إغفال شيء، وأنه كان يروي قصصا ونوادير دون أن يتحقق من مصداقيتها مما يفسر التناقضات التي لا يغفل عنها أي ناقد، ويتتبع ابن جزى الكاتب في كتابته القواعد الخاصة باللغة العربية الفصحى ولكن في بعض المواضع يستخدم الدقة الضرورية في كتابة أسماء الأعلام مما يجعل من المتعذر قراءتها بالعربية وإليه أيضا يمكن نسبة الاقتباسات الكثيرة لابن جبير التي تتداخل في نص كتاب الرحالة.

وكذا نظم الصياغة النثرية لابن بطوطة وفقاً للذوق الأدبي آنذاك وكان يقطع خط الرواية بأبيات شعرية وباختصار فإن رحلة ابن بطوطة تعتبر واحدة من المصنفات الممثلة لأدب المشاهدة والمعانية، ويتخلل الكتاب لون من ألوان الإثارة، وذلك عندما يبدأ المصنف روايته بالنسبة للغات الأجنبية لاسيما بالنسبة للشعوب غير العربية في العالم الإسلامي، فوصفه لآسيا الوسطى مرصع بكلمات وتعبيرات تركية فارسية. إن ابن بطوطة يتجاوز ابن جبير بكثير في أصالة أخباره حول البلاد البعيدة فيما يتعلق بمجال المؤسسات والتقنيات الخاصة بالحياة الاجتماعية والاقتصادية فإن ما أورده يعتبر مادة هامة، ومن العجيب على الرغم من عدم تكوين ابن بطوطة العلمي فقد وجه نظراته إلى آفاق أكثر بعداً ممن سبقوه وكما يعبر أندري ميكل فإن بطوطة استطاع في النهاية الارتفاع بالرحلة إلى لوحة تصويرية صادقة للعالم.

## الحواشي

- ١- حوله انظر مقال بدائرة المعارف الإسلامية، الطبعة الثانية للنفي بروفنسال، ج١، ص ١٢٥، ١٢٦.
- ٢- انظر فراند التحفة في الجريدة الآسيوية سنة ١٩٢٥ - ١٤٨، ٤٩٥ - ٣٠٣، وقام دبيلر بنشر وترجمة جزء من المعرب : أبو حامد الفرناطي وروايته للرحلة في البلاد الأوربية الآسيوية، مدريد، ١٩٥٣ وكذلك الأبحاث الحديثة : أبو حامد الفرناطي (ت ٥٦٥هـ) (١١٦٩م) تحفة الألباب تقديم وترجمة أراموس، مدريد، ١٩٩٠، المعرب عن بعض عجائب المغرب، تقديم ونشر وترجمة بيخارانو مدريد، ١٩٩١.
- ٣- دبيلر، المرجع السابق، ص ١٧٤، ١٧٥.
- ٤- مقال شارل بلا في دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة الثانية، مجلد ٣، ص ٧٧٧، ٧٧٨.
- ٥- أشير الآن إلى الترجمة التي قام بها مايو سالجاد وعنوانها "ابن جبير عبر المشرق" برشلونة، ١٩٨٨، ص ٤٨ - ٥٠.
- ٦- في مقدمة ترجمته الفرنسية : ابن جبير - الرحلات، ج١، باريس، ١٩٤٩م، ص ٥٩.
- ٧- رينيه بلاشير ودارمون : الجغرافيون العرب في العصور الوسطى، نصوص مختارة مع التعليق عليها، باريس، ١٩٥٧م، ص ٣٤٠.
- ٨- حول مقال محمد بن شنوب ووليم هونرباخ في دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة الثانية، مجلد ١، ص ٩٨، ٩٩، الرحلة المغربية، تحقيق وتقديم محمد الفاسي، الرباط، ١٩٦٧م.
- ٩- ابن شنوب، المرجع نفسه، ص ٩٩.

- ١٠- انظر مقال راشيل أرييه في دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الثاني، الطبعة الثانية، المجلد الثالث، ص ٩٣٣، ٩٣٤، قطع من رحلته المخطوطة رقم ١٧٣٦ بمكتبة الإسكوريال، نشرها بلخوجة في تونس.
- ١١- حوله انظر مازيا خيسوس روبرا ذو الوزرائين، ابن حكيم الرندي، الأندلسي، مجلد ٣٤، ١٩٦٩م، ص ١٠٥ - ١٢١.
- ١٢- لا يوجد مقال في دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة الثانية، مخصص للبلوى، طبعة الرباط بدون تاريخ، عنوانها "تاج المفرق لحسن السائح".
- ١٣- ج.س. فانت، دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة الثانية، م ٣، ص ٨٠٣ : كانت شخصية ابن الحاج النميري الذي ولد في غرناطة في سنة ٧١٣هـ (١٣١٣م) موضع دراسة قام بها ج.ف.ب هوبكنز بعنوان 'ابن الحاج، شاعر أندلسي من القرن ١٤' في مجلة مدرسة اللغات الشرقية (Bulletin) مجلد ١٤، ١٩٦١م، ص ٥٧ - ٦٤. إن الرحلة التي قام بها ابن الحاج في صحبة السلطان المريني أبو الحسن سنة ٧٤٥هـ (١٣٤٤م) عبر شمال المغرب كانت موضع تحليل قام به أ.ل. دي بريمار بعنوان "ملاحظات عن رحلة أبي إسحاق إبراهيم بن الحاج النميري الأندلسي في عام ٧٤٥هـ / ١٣٤٤م" مجلة تاريخ وحضارة المغرب، الجزء التاسع، ١٩٧٠م، ص ٣١ - ٣٧، والمغرب والأندلس في القرن ١٤، ملاحظات عن رحلة أندلسي للمغرب، في ١٣٤٤ - ١٣٤٥م، ليون، ١٩٨١م.
- ١٤- هذا مسجل في كتاب "خطرات الطيف في رحلة الشتاء والصيف" من كتاب مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس، تحقيق أحمد مختار العبادي، الإسكندرية، ١٩٥٨م، ص ٣٦، ٣٧.
- ١٥- حول هذا المصنف للأصفهاني (ت ٥٨٧ / ١٢٠١م) : ن. إيليسيف، نور الدين أمير مسلم عظيم، دمشق، ١٩٦٧م، ج ١، ص ٢٩، ٣٠.
- ١٦- نفع الطيب، طبعة القاهرة، ١٣٦٧هـ / ١٩٤٩م، ج ٣، ص ٢٨٥، ٢٨٧.

- ١٧- أ. ميكل، المرجع نفسه، ص ٧٧٩. ونشرت رحلة ابن بطوطة وحققت وترجمت إلى الفرنسية على يد دفرمرى، وب.ر. سانجينيى بعنوان 'رحلات ابن بطوطة' باريس ١٨٥٣، ١٨٥٩، الطبعة الرابعة، باريس ١٩٦٨ مع مقدمة وتعليقات لمونتيل ويستحسن الرجوع إلى الترجمة الإنجليزية مع تصحيحاتها اللازمة لجيب بعنوان رحلات ابن بطوطة، كامبردج، ١٩٥٨، ١٩٧١، وتوجد ترجمة بالإسبانية بعنوان ابن بطوطة عبر الإسلام لسيرافين فنخول، وفيدريكو أربوس، مدريد، ١٩٨١، الطبعة الثانية، ١٩٨٧.
- ١٨- وفقاً لترجمة ليفى بروفنسال، انظر 'رحلة ابن بطوطة في مملكة غرناطة سنة ١٣٥٠' وذلك في كتاب 'دراسات لتكريم وليم مارسيه، باريس، ١٩٥٠، ص ٢١٣، ٢١٤.
- ١٩- المقنعة، ترجمة دلا ملان، ج ١، ص ٣٧٠، ٣٧١، فقرة نقلها ليفى بروفنسال في الهامش رقم ١٩، ص ٢١٤ من مقاله الأخير.
- ٢٠- ملاحظات حول رحلات ابن بطوطة في آسيا الصغرى وروسيا، مقال نشر في الدراسات المشرقية المخصصة في تكري ليفى بروفنسال، باريس، ١٩٦٢م، ج ١، ص ١٢٥-١٣٣.

## تعليق المترجمة :

تحدثت المؤرخة راشيل آرييه عن تميز العصر الوسيط بوجود تبادلات ثقافية بين مسلمى الأندلس ومعاصريهم من المشرق فى ظل الخلافة العباسية وأشارت إلى أن الدافع الدينى كان الدافع الرئيس وراء رحلة هؤلاء الأندلسيين إلى المشرق كما ألمحت إلى دافع آخر وهو شغف الأندلسيين بطلب العلم وأصول المعرفة على شيوخ المشرق المعروفين.

واهتمت الباحثة آرييه بالرحلة البحرية وأشارت فى عجالة إلى الطريق الذى اعتاد المسافرون الأندلسيون سلوكه بحرًا، كما أكدت على أثر كتابات هؤلاء البحريين فى تطور الأدب الجغرافى، ثم انتقلت مباشرة إلى الحديث عن أشهر الرحالة الأندلسيين.

ومن الملاحظ أن المقدمة التى مهدت بها المؤرخة آرييه لبحثها جاءت مختصرة للغاية ومبتسرة، فالرحلة كانت لها آثار أخرى أكثر عمقًا وفعالية فى الحضارة الإسلامية فقد كانت من أهم عوامل الربط والتواصل بين أنحاء العالم الإسلامى فى عصور القوة، فضلًا عن أنها كانت من أبرز خصائص المجتمع العربى الإسلامى فى عصور الازدهار الحضارى<sup>(١)</sup>، فأزالت الحواجز والموانع بين أقطار العالم الإسلامى على الرغم من الخلافات السياسية أو المذهبية القائمة بينها فكان تجار الأندلس يرحلون إلى الهند والسند كما كان بعض التجار المشاركة يرحلون إلى الصين أو يقصدون المغرب والأندلس<sup>(٢)</sup>. مما ساعد على

(١) السيد عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب، الإسكندرية، ١٩٨٢م، ص ٢١١.

(٢) لرجع إلى ما أشار إليه المقري نقلًا عن ابن حيان من أن تجارًا من الشرق من عدن كانوا يقدون إلى قرطبة زمن المنصور بن أبى عامر (المقري)، فتح الطيب من حصن الأندلس الرطيب، القاهرة، ١٩٤٩م، ج ١، ص ٢٨٨، كما تستدل من شواهد القبور التى كشف عنها البحث الأثرى فى المرية على أن تجارًا من مصر والشام وبنداد كانوا يشتغلون بالتجارة فى المرية (لمزيد من التفاصيل راجع عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ٢١٢) كما اشتهرت أسرات عراقية كاملة عملت بالتجارة فى مصر (لمزيد من التفاصيل عن بنى =

انتشار الإسلام في الشرق والغرب عن طريق الاحتكاك السلمي، فضلاً عن شيوع وحدة ثقافية وكرية إسلامية سادت من مشرق العالم الإسلامي إلى مغربه مما زاد من توثق عرى الوحدة الإسلامية.

وقد تعددت دوافع الرحلة فقد رحل الناس للتجارة بين الأقطار الإسلامية المختلفة في المشرق والمغرب أو للتجسس مثل الجغرافى والرحالة الشهير ابن حوقل، أو للقيام بمهمة أو للسفارة<sup>(١)</sup> أو للحج وطلب العلم مثلما أشارت الباحثة آرييه.

ولا يعتبر هذا الموضوع جديداً، فقد سبق آرييه عدد كبير من مؤرخينا قاموا بالتصدى لدراسته بمزيد من الاهتمام والتفصيل ولعل أهم هذه الكتابات العربية المصنف القيم الذى ألفه الدكتور حسين مؤنس بعنوان "تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس" الذى تناول فيه تطور علم الجغرافية فى الأندلس وأهم الجغرافيين والرحالة المغاربة والأندلسيين وكتبهم ورحلاتهم إلى المشرق الإسلامى ومن هؤلاء أبو حامد الغرناطى وابن جبير وابن سعيد والعبدى وابن الخطيب، كما عالج تطور أدب الرحلة فى الأندلس، وقد فات المؤرخة آرييه أن ترجع إلى هذا المصنف الهام الذى يعد من أكثر ما كتب قيمة فى هذا المجال خاصة ورجعت فى هذا المقال إلى بعض المصادر والمراجع المكتوبة باللغة العربية، كما فاتها الرجوع إلى عدد من البحوث الهامة التى تناولت علم التاريخ ومنها على سبيل المثال الدراسة الجادة التى أصدرها الدكتور شاكراً مصطفى عن علم التاريخ وكتاب "التاريخ والمؤرخون العرب" للدكتور السيد عبد العزيز سالم. وقد فرق الدكتور سالم فى كتابه هذا بين الرحالة والجغرافى فهو يرى أن الرحالة لا يتجاوز فى كتاباته وصف مشاهداته أثناء الرحلة أما الجغرافى فيعمل على تغطية الإقليم الذى يتناوله كله بالبحث نيسأل ويتقصى ويجمع المعلومات من

---

<sup>(١)</sup> الكوكب التكريتين راجع صحر سالم، المرابيون فى مصر فى القرن السابع الهجرى، الإسكندرية ١٩٩٠م، ص ٦٠ وما يليها.

<sup>(٢)</sup> السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ٢١١.

الحجاج وطلبة العلم والمغامرين والتجار والملاحين وليس من الضروري في رأيه أن يكون الجغرافى رحالة<sup>(١)</sup>.

وإذا كانت الدكتورة آرييه قد اعتبرت أبا حامد الغرناطى نموذجاً ممثلاً للرحالة المغاربية فإن الدكتور حسين مؤنس يرى أن كتاب "ترتيب الرحلة للترغيب فى الملة" الذى كتبه ابن العربى والذى يتضمن رحلته المشرقية وما درسه فيها وما أفاده من هذا الدرس ومن لقى من العلماء والأعيان، هو النموذج الأول للرحلة الأندلسية وأول وصف لرحلة يكتبها أندلسى كما أكد فى كتابه "تاريخ الجغرافية والجغرافيين" على أن أبا بكر بن العربى هو مبتكر هذا الفن فى الأندلس، ويرى أن أبا حامد الغرناطى كتب شيئاً قريباً من "ترتيب الرحلة" ولكنه لم يصف رحلته ولم يعين مراحلها أو "مراتبها" بحسب مصطلح ابن العربى فى كتابه، ويختتم الدكتور مؤنس رأيه فى رحلة ابن العربى بقوله «نعم إنه لم يصل فى ذلك إلى شأر ابن جبير ولكنه دون شك، السابقة التى سيحتئنها أمثال ابن رشيد والمبدرى»<sup>(٢)</sup>.

وفىما يتعلق بما أوردته المؤرخة آرييه عن أبى حامد الغرناطى يتضح أنها اعتمدت كثيراً على ما أورده سيزار نوبلر فى مقدمة ما نشر من "المغرب من عجائب المغرب" فهى لم تأت بكثير عند حديثها عنه فلم يتجاوز ما ذكرته عن سير رحلته الذى تناولته باختصار شديد سوى مقتطفات من آراء وأوصاف سيزار نوبلر لأبى حامد الغرناطى كما وردت فى مقدمة المعرب. وقد أخطأت آرييه عندما أوردت اسم أحد كتابى أبى حامد الغرناطى اللذين ألفهما فى الموصل وهو "تحفة الألباب ونخبة الإعجاب" فقد أوردته على أنه "تحفة الألباب أو (الأحباب) ونجعة الإعجاب" كما لم تشر إلى سبب عدم عودته من رحلته

(١) المرجع السابق، ص ٢١٤.

(٢) حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس، مدريد، ١٩٦٧م، ص ٤١١ - ٤١٢.

المشرقية إلى الأندلس مرة أخرى على الرغم من أن سيزار دويلر قد علل ذلك بسقوط بلده أقليم في أيدي النصارى<sup>(١)</sup>. كذلك لم تشر راشيل أرييه إلى زيارة أبي حامد الغرناطي للإسكندرية وزيارته لمنارها وبقية وصفه لها على الرغم من أهمية ذلك للمهتمين بدراسة هذا المنار للتعرف على التطورات التي تعرض لها كذلك لم تشر إلى وصف معبد السرايوم بالإسكندرية.

وقد ألف أبو حامد الغرناطي كتابه الأول "المغرب في بعض عجائب المغرب" في بغداد سنة ٥٥٦هـ وذلك عندما زارها للمرة الثانية، تلبية لطلب صديقه الوزير عون الدين يحيى بن محمد بن هبيرة الذي استضافه وأحسن إليه. وقد أورد الدكتور حسين مؤنس حيزاً كبيراً من كتابه للحديث عن هذا المصدر الهام، أشار خلاله إلى أهم محتوياته وحللها تحليلاً عملياً دقيقاً<sup>(٢)</sup>.

ويعتبر المغرب أول مؤلفات أبي حامد الغرناطي، أما تحفة الألباب فقد دونه أبو حامد في الموصل استجابة لرجاء الشيخ معين الدين أبي حفص عمر بن محمد بن خضر الأردبيلي مؤلف كتاب "وسيلة المتعبدين"<sup>(٣)</sup>.

أما فيما يتعلق بابن جبير فلم توضح أرييه صراحة في سياق حديثها عن رحلته أنه قام بثلاث رحلات إلى المشرق الإسلامي، فقد تحدثت عن انطباعاته ومشاهدته إجمالاً وذكرت ضمناً ما يشير إلى رحلتيه البحريتين الأولى والثانية. والواقع أنه رحل إلى المشرق ثلاث مرات وأن كتابه "مذكرة الأخبار" تسجيل لرحلته الأولى التي بدأها في شوال سنة ٥٧٨هـ وانتهى منها بعوبته إلى الأندلس لي ٢٢ محرم سنة ٥٨١هـ. ويعتقد د/ عبد العزيز سالم أنه كتب أخبار هذه الرحلة فيما يقرب من عام ٥٨٢هـ عندما شاعت في الأفاق أخبار انتصارات

(١) لمزيد من التفاصيل راجع حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين، ص ٣٠٦، حاشية

رلم ١.

(٢) المرجع نفسه، ص ٣٢٦ وما يليها.

(٣) لمزيد من التفاصيل راجع حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين، ص ٣٢٣ وراجع

السيد عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخون للعرب، ص ٢٢١.

صلاح الدين يوسف بن أيوب واسترداده لبيت المقدس ثم دفعه الحنين للمشرق إلى رحلته الثانية إلى هناك سنة ٥٨٥هـ عاد بعدها إلى غرناطة في سنة ٥٨٧هـ ثم استقر في سبتة وتزوج بها. وعندما توفيت زوجته عاتكة أم المجد بثت أبي جعفر الوثقى، رحل إلى المشرق الإسلامي للمرة الثالثة في سنة ٦١٤هـ ونزل بالإسكندرية وظل مقيماً بها حتى وافته المنية ودفن بها، ومن المرجح أنه دفن في الموضع المعروف اليوم بسيدي جابر<sup>(١)</sup>.

وقد اعتمدت آرييه في وصفها لرحلة ابن جبير الثانية في البحر على ما أورده هو نفسه من وصف الأخطار التي تعرض لها أثناء رحلته فنقلت نصوصاً على لسانه في مقالها بعد أن ترجمتها إلى اللغة الأسبانية ووضعتها بين قوسين. وقد تصرفت راشيل آرييه في النصوص باستبدالها للتواريخ الهجرية الواردة في النص الأصلي بالتواريخ الميلادية واختصارها لبعض الأحداث، وقد قمنا عند ترجمتنا لمقال آرييه إلى العربية بالرجوع إلى نص رحلة ابن جبير الأصلي، ونقلنا ما ورد فيه حرفياً حرصاً على الأمانة والدقة العلمية طالما وضعت راشيل آرييه بين قوسين.

واعتقد أن ما أورده ابن جبير من صور حية عن التعايش المسلمي بين الصليبيين والوطنيين في مملكة بيت المقدس الصليبية على الرغم من الحروب التي كانت قائمة بينهما، شهادة حية على التسامح والامتتارة اللذين اتسم بهما الفكر الإسلامي.

وإذا كانت آرييه قد وصفت ابن جبير بالإحساس القوي والتدين الذي تمثلت مظاهره في فقرات معينة من كتابه فقد وصفه الدكتور حسين مؤنس بأنه كان ذا إحساس عميق بوحدة الوطن الإسلامي فهو يقوم برحلته الثانية إلى المشرق احتفالاً باسترداد صلاح الدين لبيت المقدس وهو يوضح في رأيه مدى

(١) السيد عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب، ص ٢٢١. وارجع إلى ما ورد في ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، القاهرة، ١٣١٩هـ، ج ٢، ص ١٦٩.

عمق الروابط الفكرية والمعنوية ومدى توحيد المشاعر الإسلامية بين أطراف العالم الإسلامي رغم المسافات الطويلة والخلافات السياسية والمذهبية، كذلك وصفه الدكتور مؤنس بأن كان رجلاً ذا قلب إنساني كبير فقد هاجر في أواخر أيامه إلى المشرق ليتعزى عن مصابه في زوجته عاتكة لتأسى والنسيان وزيارة البيت الحرام<sup>(١)</sup>.

ولم تشر راشيل آرييه إلى قيمة ما أورده ابن جبير من إشارات هامة عن البحر والسفن وأحوال الملاحة في البحرين المتوسط والأحمر في القرن السادس الهجري ولا عن ملاحظاته الجغرافية التي كانت غاية في الدقة والصدق. أما العبدري فقد ذكرت آرييه أنه رجع بالنصب إلى أصول عربية بعيدة وأنه كان ينتمي إلى قبيلة حاحة التي كانت تنزل (الصويرة حالياً) بموجادور. وقد يبدو ما ذكرته راشيل آرييه متناقضاً في بداية الأمر إذ كيف يرجع العبدري إلى أصول عربية وينتمي إلى قبيلة حاحة اليريرية في الوقت ذاته؟؟

وفي حقيقة الأمر فإن العبدري عربي الأصل، كرشي يرجع إلى بني عبد الدار بن قصي<sup>(٢)</sup> وكان أصل بيته من بلنسية ثم هاجر به أهله وهو صغير إلى المغرب حيث استقروا في الإقليم الذي ينسب إلى قبيلة حاحة المصمودية التي كانت تضرب حول مدينة الصويرة الحالية<sup>(٣)</sup>.

(١) حسين مؤنس، المرجع السابق، ص ٤٣٨.

(٢) السيد عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخين العرب، ص ٢٢٤.

(٣) لم يكن اسم الصويرة وارداً في العصر الوسيط وإنما استعمل زمن السلطان محمد بن عبد الله الذي بادر ببنائها واتخاذها ميناء أول لمبادلات المغرب التجارية مع الخارج وذلك ابتداء من عام ١٧٧٣م، وفتحها للأجانب وخصها بامتيازات جمركية مما جعلها تتفوق على غيرها من الموانئ المغربية (محمد زينبير، إطلالة على منطقة الصويرة في العصر الوسيط، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أكادير، ١٩٩٠م، ص ٧٧) وقد اختلف المؤرخون في أصل الصويرة، ويجمع بعض المؤرخين على أن موقع الصويرة هو أمكدول مرسى حاحة وسوس (زينبير، المرجع السابق، ص ٨٠) في حين يرى آخرون أن الصويرة الحالية بخلاف الصويرة القديمة وأن الصويرة الحالية هي مرسى أكوز أو كوز الذي ذكره-

وقد تحامل العبدري على مصر والمصريين وسب أهلها، لاسيما عند وصفه لما لآلاه على أيدي منتشى المكوس، في حين نراه يمدح تونس وأهلها مدحا شديداً.

ولم يكن هذا هو شأن العبدري وحده، فابن سعيد صور مدينة القسطنطينية تصويراً سيئاً وتهكم على أهلها<sup>(١)</sup> مما دفع بعض المؤرخين إلى اعتبار أن نم أهل مصر أصبح موضوعاً تقليدياً لدى للرحالة المغاربة<sup>(٢)</sup>.

وأفضل ما في بحث راشيل أرييه حديثها عن البلوى وابن بطوطة فقد تناولت رحلتيهما بشيء من النقد والتحليل بخلاف دراستها السابقة لأبي حامد الغرناطي وابن جبير والعبدري وابن رشيد التي اقتصرت على مقدمة كتبهم المنشورة، وكنت أتمنى لو ختمت دراستها بالإشارة إلى رحلة أبي الحسن على بن محمد القلصادي القرشي البسطي المتوفى سنة ٨٩١هـ. وقد ولد القلصادي في مدينة بسطة الواقعة شمال شرقي غرناطة والتابعة لكونية جيان، وبها نشأ وتلقى علومه الأولى على أيدي شيوخها أبي بكر الياز، وأبي عبد الله محمد بن محمد البيهقي، وأبي أحمد جعفر بن أبي يحيى، وأبي الحسن على اللخمي القرطبي. وكان خلال إقامته ببسطة يتردد على غرناطة عاصمة للمملكة، وقد بدأ القلصادي رحلته الحجازية سنة ٨٤٠هـ فزار تلمسان وتلقى العلم على أعلامها وقضى نحو ثمان سنوات أثناء ذهابه يضاف إليها ثمانية أشهر في طريق عودته للأندلس. أما تونس فكانت المركز العلمي التالي الذي حل به وأقام بها مدة سنة

---

= البكري (جد القادر زمانة، الصورة وإليهما في ذاكرة التاريخ، مجلة كلية الآداب، أكادير، ١٩٩٠م، ص ٩٥ وما يليها).

(١) ابن سعيد، المغرب إلى حلى المغرب، تحقيق زكي محمد حسن، وشوأل ضيف، وسيدة كاشف، القاهرة، ١٩٥٣م، ج ١، ص ٦٥٢.

(٢) سعد زغلول عبد الحميد، ملاحظات عن مصر كما رآها ووصفها الجغرافيون والرحالة المغاربة في القرنين السادس والسابع الهجريين، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، مجلد ٨، ١٩٥٤م، ص ١٠٨.

كاملة، وعمل أثناء إقامته بها بالتأليف فقد صنف آنذاك كتاب "كشف الجلباب عن علم الحساب" وكتابه "القانون في الحساب" وكتابه "الكليات في الفرائض" ثم مضى في طريقه إلى القاهرة عبر جربة فطرابلس الغرب فالإسكندرية وكانت إقامته بالقاهرة قصيرة نسبيًا إذ لم تتجاوز ستة أشهر إلا بقليل، ثم رحل إلى الأراضى العنقصة، وهناك صنف كتابًا في الفرائض وهو "شرح فرائض ابن الحاجب المرأغي" الذي أجاز القلصادي في أسانيده على كتب الأحداث. وقد شغلت هذه الرحلة خمس عشرة سنة رحل بعدها القلصادي إلى غرناطة حيث استقر، وتواصل عطاؤه العلمي، واشتغل بالتأليف والتدريس على الرغم من الاضطراب السياسي الذي كان يجتاح مملكة غرناطة في هذه الفترة الحرجة. وعندما أحس القلصادي بالأخطار تحيط ببلاده، رحل إلى باجة أفريقية حيث واصل نشاطه العلمي، وكانت باجة من أكثر المراكز العلمية بقونس ازدهارًا وكانت بها جالية أندلسية ومغربية.